

الأمن الفكري والوحدة الوطنية (لا أمن دون فكر ولا فكر دون أمن ولا معنى لكليهما دون وطن)

بحث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري

«المفاهيم والتحديات»

في الفترة من ٢٢ - ٢٥ جماد الأول ١٤٣٠هـ

كرسي الأمير نايف بن عبد العزيز للدراسات

الأمن الفكري بجامعة الملك سعود

إعداد

د/ خالد بن عبد العزيز الشريدة

عميد شؤون الطلاب بجامعة القصيم

الأستاذ المشارك بقسم الاجتماع

ملخص بحث الأمن والفكر والوحدة الوطنية Abstract "دراسة سوسيولوجية"

.. الأمن والفكر والوحدة الوطنية مصطلحات تشكل وفق المتابعة العلمية والأهمية العملية أهم مصطلحات يكثر الحديث عنها في وقتنا المعاصر. ونظراً للارتباط المباشر والأثر المتبادل بين هذه المصطلحات ، كانت هذه الدراسة أداة مهمة لتحليل عدد من الجوانب لهذه المفاهيم وكيف تؤثر وتتأثر ببعضها ومن ثم كيف تنعكس على استقرار الواقع الاجتماعي وأمنه وتنميته.

.. تتطرق هذه الدراسة في فصولها الخمسة إلى فرز علمي وتحليل اجتماعي منهجي من خلال دراسات عربية وأجنبية للمفاهيم المطروحة وتخرج في خاتمة كل فصل إلى مقارنة تحليلية تفيد في التأسيس العلمي للأمن الفكري والاجتماعي في المجتمع السعودي. ومن خلال جولة علمية متعمقة في معاني الأمن والفكر تطرح الدراسة رؤيتها في مفهوم الأمن الفكري وتؤكد على أن انتظام معنى الحياة ينعكس بالتأكيد على انتظام معنى الفكر والأمن ثم تعرج الدراسة على سمات الفكر الرشيد وما يضافه. وكل هذه المعاني ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالوطنية وممارستها في الواقع... وتطرح الدراسة تساؤلاً مهماً هو " كيف يمكننا تحقيق أعلى قدر من الاتساق الفكري بين أعضاء المجتمع السعودي في الوقت الراهن؟ " .. ثم تضيف الدراسة بعداً مهماً لا يكتفي بطرح رؤية الاتساق الفكري بل كيف نضمن استمرارية الفكر الوطني المعتدل والمتفاعل مع قضايا الوطن؟ .. والتي تصب في هدف الدراسة وهي تحقيق أعلى قدر من الوحدة الوطنية وتعزيزها.

ولاتغفل الدراسة الأثر الخارجي العالمي على مسألة الفكر والوحدة الوطنية بل تحاول تأطير معادلة تضمن التفاعل البناء بين المحلية والعالمية فيما يخدم أمننا ووحدتنا الوطنية.

وتختتم الدراسة فصولها بالتأكيد على أهمية إدراك المسؤولين على مختلف مستوياتهم بأن الضعف أو الفشل في إيجاد قواعد مشتركة وإطار قيمي واضح يُفرز مجتمعاً متناغماً متناغماً متناغماً ، بل إن النتيجة المتوقعة كما يراها الاجتماعيون هي انشغال الناس وسعي الشباب منهم إلى أشكال من الانتماءات التي تخل بالأمن وتخرق الوحدة الوطنية.

وإلى هنا تصل الدراسة إلى عدد من الاستخلاصات العلمية وتوصيات عملية تخدم هدف البحث في تعزيز الأمن الفكري وتغليب لغة المصلحة والوحدة الوطنية.

وللزملاء القائمين على برنامج الأمير نايف بن عبد العزيز للأمن الفكري خالص الشكر والتقدير على اهتمامهم بهذه القضية البالغة الأهمية.

محتويات الدراسة

تتبن أهمية الدراسة ليس من عنوانها فقط، بل من خلال محتواها، ولا يبالغ الإنسان - المتخصص - حينما يؤكد بأن مثل هذه المواضيع في غاية الأهمية إذ هي ليست فرعية أو موسمية، بل هي الأساس الذي من خلال أمثالها نضع الأسس التي ننور بها فكرنا ونعزز من خلال توجيهاتها وحدثنا ونمكّن من خلالها لوطينتنا. وحوت هذه الدراسة بين ثناياها مسائل وقضايا وأفكار تؤسس لمنهجية واستراتيجية وطنية في مسائل الأمن والفكر والوحدة الوطنية. وتشتمل على خمسة فصول:

الأول: يجول بين مصطلحاتها العلمية ثم يخرج بمفهوم لمصطلح "الأمن الفكري". يؤكد ضمان الاحتياجات ويؤسس لتقدير الحقوق والواجبات.

الثاني: يناقش مفهوم الوطنية وممارسة المواطنة وفق رؤى الشرق والغرب ثم ينتهي إلى أهمية التلاقي بين مسلمات الفكر وثوابت الوطن.

الثالث: يطرح قضية الفكر بين رشده وتيهانه، ويجلي من خلال توصيف علمي علامات الفكر الراشد من الثائمه. ثم يعرض إلى مسببات الغلو التي ابتلي بها بعض المنتمين لنا.

الرابع: يشرّح بمنهجية علمية فسيولوجية موضوعية جسد المجتمع ويضعه أمام واقعه كمرآة يشاهد من خلالها سلبياته فكراً ومظهرها وسلوكها ثم يناغم بين مكوناته وفق اشتراطات تضمن له حياة أكثر استقراراً وأماناً وتنمية.

الخامس: يختم هذا التشخيص بأطروحة الوسطية التي لا تعني في حقيقتها اللفظية أن أكون وسطاً بين الأشياء بل أن أكون الأفضل بين الوسطاء والفرقاء والأحلاء. معززا ذلك بأفكار علمية وتوصيات عملية لكل نسق من أنساق حياتنا الاجتماعية.

الباحث: د/ خالد بن عبدالعزيز الشريدة

عميد شؤون الطلاب بجامعة القصيم الأستاذ المشارك بقسم الاجتماع

وفي الختام لكم مني جميعاً... التحية والسلام.

الفصل الأول

"جولة علمية في مصطلحات الأمن والفكر والوطنية"

عادة ما تبدأ البحوث بتعريف المصطلحات التي تركز عليها، لكن اللفتة المهمة هنا هي أن ظروفنا وأحداثنا وأسباباً معينة تؤثر في نشوء مصطلحات جديدة يبدأ تداولها إثر تلك الظروف، ولعل مفهوم "الأمن الفكري" هو مصطلح خلقته ظروف أقرب إلى الحداثة منها إلى القدم، وبالتالي فهو مفهوم معاصر من حيث الاهتمام، أكدته أحداث وظواهر يمر بها العالم وبالأخص الإسلامي منه، حيث تسارع ظهور الأفكار التي تحمل في طياتها معاني التشدد والغلو والتطرف المتلبس بلبوس الإسلام!! وبالتالي ظهرت الحاجة إلى حماية وصيانة الفكر المعتدل والمتزن أمام هذه التيارات المختلفة المشارب والتي تتبنى مواقف تحالف الفكر الإسلامي الرشيد.

وهنا نطرح ابتداءً مفهوم الأمن ثم الفكر ومن ثم نعرّج إلى مصطلح الأمن الفكري المقصود.

المبحث الأول:

معنى الأمن :

تشير عدد من المراجع اللغوية بأن مصطلح "الأمن" غني ومتشعب في معانية إذا يعني الطمأنينة وعدم الخوف ، كما ينسحب معناه على التصديق والحفظ والثقة والسلامة وطلب الحماية. فيقال مثلاً : أمن البلد أي اطمئنان أهله فيه، وأمن الشر أي سلم ، وأمن فلان أي وثق به وهكذا.. (في العامر: ٢٠٠٦)

والأمن في لسان العرب من آمن يأمن أمناً فهو آمن.

وآمن أمناً وأماناً وأمانة، وأمناً : اطمأن ولم يخف فهو آمن وآمن وأمين. وآمن منه : أي سلم منه. وآمن على ماله عند فلان أي جعله في ضمانه (في الزهراني: ١٤٢٥).

والأمن هو ذلك المعنى الذي يشعر الإنسان فيه بالأمان، وهو لا يعني فقط حالة شعورية نفسية بل هو أيضاً وضع اجتماعي واقتصادي وغذائي وسياسي وكل ما يمكن أن يندرج تحت مفهومه .

وإذا كانت الشرائع السماوية عموماً قد دعت وأكدت على المحافظة على ما اشتهر على تسميتها بالضرورات الخمس وهي حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والعرض ، والمال. فإن الملاحظ المهم هنا هو أن حفظ الدين يأتي في المرتبة الأولى . وعليه فإن هذا البحث يؤكد على أن ما يمكن الإطلاق عليه بمصطلح "الأمن الديني" هو أعظم حاجة يجب أن تستثار الجهود من أجله.

والأمن قبل أن يكون جهداً بشرياً، هو منحة إلهية، إذ يقول سبحانه " وآمنهم من خوف " وفي التزليل أيضاً " وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً.." كما يمن الله على عباده حينما يعبدونه ولا يشركون به شيئاً بأن يبدلهم من بعد خوفهم أماناً.. وفي التزليل الحكيم "...وليدلنهم من بعد خوفهم أماناً يعبدوني لا يشركون بي شيئاً..." ومن كل ذلك يتبين بأن الأمن هو نتيجة تحصل لفعل سبب متعلق برضا الله سبحانه إذ هو من يمنح ذلك أو يمنعه.

المبحث الثاني:

معنى الفكر:

وردت مادة (فكر) في القرآن ثمانية عشر مرة و(فكّر) مرة واحدة و(تفكروا) مرة واحدة (وتتفكرون) ٣ مرات (ويتفكرون) مرتين ويتفكرون ١١ مرة (الجعفري ، ٤٢:٣٢).

وتدور معاني الفكر حول التدبّر والتمعن والتبصر في الشيء. وفي المعجم الوسيط تعني مادة الفكر : إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول ويقال : لي في الأمر فكر أي نظر وروية. يرى ابن فارس في معجم "مقاييس اللغة" أن مادة "فكر" تفيد : تردد القلب في الشيء، يقال: إذا ردّد قلبه معتبراً، ورجل فكير: كثير الفكر.

ويرى صاحب القاموس المحيط أن "الفكر" : هو إعمال النظر في الشيء.

أما صاحب "المصباح المنير" : فإن "الفكر" عنده تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني. ولي في الأمر فكر أي : نظر وروية.(في الجحني، ٢٠٠٧).

ويفرّق الراغب الأصفهاني بين الفكر والتفكير، فيقول: الفكر: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم. والتفكير: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا روي: "تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله". والفكر عند ابن القيم: هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة.

وقيل إن الفكر هو: "إعمال العقل في مشكلة من المشكلات من أجل الإحاطة بها وفهمها وطرح الحلول لها". وفي معجم مقاييس اللغة يعني الفكر: تردد القلب في شيء وفي الصحاح والقاموس: الفكر هو عمل العقل أو الخاطر في شيء. والتفكير يعني: التأمل. (في الزبيدي: ٩: ١٤٢٢).

ومن المهم أن نلفت الانتباه هنا إلى أن القرآن الكريم قد أكد في مواضع مختلفة على أهمية العقل ودعاه إلى التفكير والتدبر وتشغيل الطاقة العقلية للوصول والحصول على الثمرة النافعة، والملاحظ المهم في مختلف آيات القرآن هو تحفيز العقل لإعمال الفكر من أجل أن يهتدي إلى الحق ويعمل به. وهنا يشير الرومي إلى ذلك بقوله " وهذا التأمل والتدبر ليس هو المقصود لذاته وإنما أن يؤدي إلى ثمرة نافعة لا أعني بها فلسفة يتشدد بها الفلاسفة ... وإنما أعني بها الإصلاح ... إصلاح القلب .. إصلاح العقيدة ... إصلاح الحياة في الأرض على منهج الدين الصحيح " (في الجعفري، ٣٧: ١٤٢١).

ويشير ابن تيمية إلى ذلك بقوله أن القرآن يأمر ويمدح التفكير والتدبر والتذكر والنظر والاعتبار والفقہ والعلم والعقل والسمع والبصر والنطق ونحو ذلك من أنواع العلم وأسبابه وكماله ويذم أضداد ذلك (المصدر نفسه). ومع كل هذه الدعوة من القرآن للتفكير والتدبر فإن آيات الله أيضاً أشارت إلى العقل له في ذلك حد..، فالإسلام وإن شجع على إثارة التفكير فإنه أمر بالاستسلام والامتثال للأمر الشرعي الصريح ... ومثال ذلك أن هناك أموراً لا يستطيع العقل البشري أن يصل إلى كنهها مهما أوتي من أدوات التفكير، كما في قوله تعالى (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ... وهنا تتضح أهمية مدلول الأمن الفكري وضوابطه، حيث إن الفكر في سياحته وتدبره يحتاج إلى أن يلتزم بحدود معينه من أجل ألا يتيه في مسيرة تفكيره فيضل ويضل. وهذه الحدود لا تعني تحجيره لكنها نواقيس هداية لتلا يتيه.

وهنا نصل إلى التعريف بمصطلح البحث الأهم وهو مصطلح الأمن الفكري ..

المبحث الثالث:

معنى الأمن الفكري:

في تقديري أنه يمكن أن ننظر إلى هذا المعنى وكمال تحقيقه من خلال ثلاثة مستويات

أولاً: المستوى الفردي

ثانياً: المستوى الاجتماعي

ثالثاً: مستوى الدولة

ويعرض عدد من الباحثين عبارات مجملة عن أهمية الأمن الفكري ومجالاته ومتطلباته فهو يعني عند بعضهم الحفاظ على المكونات الثقافية الأصيلة في مواجهة التيارات الثقافية الوافدة أو الأجنبية المشبوهة، وهو بهذا يؤكد حماية وتحصين الهوية الثقافية من الاختراق أو الاحتواء من الخارج. وهذا - أيضاً - يعني أن الأمن الفكري هو الحفاظ على العقل من الاحتواء الخارجي، وصيانة المؤسسات الثقافية في الداخل من الانحراف.

ويشير الحضيف بأن "الأمن الفكري هو إحساس المجتمع بأن منظومته الفكرية ونظامه الأخلاقي الذي يرتب العلاقة بين أفراد مجتمعه ليس في موضع تهديد من فكر وافد.." ويؤكد الطلاع (١٤١٩) بأن الأمن الفكري يأتي على رأس قائمة الأولويات لأنه يؤمن تحقيقاً تلقائياً للأمن في الجوانب الأخرى كافة ذلك لأن العقل هو مناط القيادة العليا الواعية وهو الجهة القيادية الموكلة بكل أصناف الأمن الأخرى، وإذا صلحت القيادة صلحت توابعها. (ص ٢٠).

ويذكر عدد من الباحثين (العامر، ٢٠٠٦، الشدي، ١٤٢٥، عمارة، ٢٠٠٤، غيلان، ١٤٢٩) بأن الأمن الفكري يتحقق من خلال الحماية الكافية للوطن والمواطن داخليا وخارجيا مما يشعر المواطن بالطمأنينة والسكينة والاستقرار في الدين والنفس والعقل والعرض والمال في الزمن الحاضر والمستقبل. والإسلام جاء ليحفظ ويصون على الناس ضرورات خمس هي مقاصد الشريعة، أولها وأهمها: ضرورة الدين فكل اعتداء على الدين قولاً أو فعلاً فإن الشريعة الإسلامية تحرّمه وتمنع منه، ويشمل ذلك الاعتداء على عقائد الناس ومحاولة تغييرها والإخلال بأمنهم الفكري والعقدي. ويعرض الشدي (١٤٢٥) بأن هناك مفاخر ثلاث في مجتمعتنا السعودية تعمل على ترسيخ مفهوم الأمن الفكري وهي حسب تعبيره ليست مباني شاهقة وإنما معان ناطقة تتمثل في: أولاً القضاء الشرعي الذي يتحاكم إليه الناس في أمور الدماء والأعراض والأموال، وثانيها: الرئاسة العامة لبيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي المتابعة للجانب العملي في تحصين المجتمع من المنكرات الظاهرة، وثالثها: مراكز الدعوة والإرشاد والتي تعنى بتوعية المسلمين وإرشادهم ودعوة غير المسلمين إلى دين رب العالمين. وكل ذلك تحت قيادة حكيمة وأمن متيقظ.

... ومن المهم الإشارة إلى أن الأمن الفكري منه ما يكون وقائياً ومنه ما يكون علاجياً حيث تتم الوقاية بمختلف الوسائل الممكنة لرفع معدل الوعي بمختلف القضايا الفكرية والأمنية في آن واحد ويأتي في مقدمتها بث العلم الصحيح وفتح المجالات للعلماء والمفكرين الراشدين للتواصل مع مختلف مكونات المجتمع، في الوقت الذي يتم فيه الحذر والتحذير من مجالسة المنحليين أو المختلين فكراً، وألئك هم الذين يحتاجون إلى القسم الآخر الذي يركز على المعالجة بالحكمة التي تقتضيها كل حالة وفق طبيعتها.

... وإذا ما أردنا أن نفكك معنى (الأمن الفكري) باعتبار مستوياته المذكورة آنفا - الفردية والاجتماعية، والدولية والمؤسسية - فإن مظاهر ثلاث (هي الطمأنينة والحصانة والفاعلية) يجب أن تؤخذ بالحسبان لتحقيق ذلك:

أولها: الشعور بالطمأنينة على المستوى الفردي والمجتمعي والمؤسسي، وهذا الشعور هو نتاج لما تستظل به هذه المكونات من تطبيق شرع الله وتحقيق العدالة والمساواة والقيام بالحقوق والواجبات بين مكوناته.

وثانيها: الحصانة التي تورث الثقة في هذه المكونات بأن وراء هذا الجو المفعم بالارتياح ما وراءه من القوة (الذاتية والأمنية) التي يصعب على المخترقين فكرا التأثير عليه.

وثالثهما: الفاعلية التي تجعل من هذه المكونات تتجاوز مع بعضها وتتكامل، بل وترسم صورة للداخل والخارج بأننا قوم عمليون، نؤمن بمسلماتنا ونعمل بها وندعو إليها.

وهذه الصورة تعني أن الأمن الفكري يمكن تعريفه بأنه " الاطمئنان العقلي والعملي لكل مكونات الوطن بضمان الحاجات والتقدير المتبادل للحقوق والواجبات".

ومن الأهمية بمكان التأكيد على مسائل ثلاث في خاتمة هذا المبحث:

الأولى: أن مسألة الأمن الفكري في مستوياتها الثلاث يؤثر بعضها على بعض فقدرة الدولة مثلا على تأمين الفكر السليم ومدافعيتها ضده سوف ينعكس بالتأكيد على مستوى الأمن الفكري الذي ينعم به الفرد والمجتمع، وأبرز وسيلة يمكن أن تلعب دورها هنا هي المادة التعليمية التي يتلقاها الناشئة في مقاعدهم الدراسية وما إذا كانت تربط في مجمل موادها خططها ومحتوياتها بالمصالح العليا للوطن ومسلماته.. ومن المادة التعليمية إلى المادة الإعلامية التي يشاهدها الإنسان وما إذا كانت تتكامل مع المنظومة العلمية التي يتلقاها في بيئته التعليمية.

.. كما أن الفعل الاجتماعي من خلال القيادات الاجتماعية سواء المسؤولين في مناصبهم الاجتماعية أو العلماء والمثقفون من خلال أدوارهم الرسمية وغير الرسمية يلعب دورا حيويا في تأمين الفكر السليم وترسيخه في المجتمع..

على أن الدائرة التي تعد الحصن الأخير للأمن والأمان الفكري هي الفرد نفسه بما يؤمن به من مبادئ وما يستشعره من مسؤوليات وما يعتقده من أفكار وقيم والتي بالتأكيد تنعكس على سلوكه.

الثانية: يؤكد الباحثون في علوم النفس والتفكير بأن الأفكار تلعب دورا محوريا في تشكيل الشخصية.

فالأفكار عادة ما تتحول إلى سلوكيات... وعليه فإن الفكر المتأزم والمتطرف ينتج سلوكا يتناسب

وأفكاره، وهذا يؤكد أهمية العمل على مصادر التوجيه الفكري وتنقيتها من كل ما يشوبها سواء في المادة المشاعة بين الناس، أو فيمن يوصلون الأفكار إلى الناس.

الثالثة: أننا يجب أن نتفهم معادلة السبب والنتيجة، فمسألة الأمن الفكري هي في الحقيقة نتيجة نسبية لأسباب فردية واجتماعية ومؤسسية.. والمعنى هنا أن مانقوم به من أفعال على أي مستوى كان يؤثر على معدل الأمن الذي نعيشه. وهذا المعنى يبينه قول الله تعالى في سورة النور " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننهم في الأرض، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً.. " وهنا يتبين أن الله سبحانه شرط النتيجة وهي (الاستخلاف، والتمكين، والأمان) بعبوديته وعدم الإشراك به. وهنا يتبين بأن الأفعال على مستوياتها المختلفة لها دور بالغ في معدل الأمن لنفسي والاجتماعي والمؤسسي / الدولة.

... ونورد في آخر هذا الفصل ما ذكره حجة الإسلام أبو حامد الغزالي لأهميته في ضبط منظومة الأمن الاجتماعي بقوله " إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا:

- بصحة البدن
- وبقاء الحياة
- وسلامة قدر الحاجات، من:
- أ- الكسوة
- ب- والمسكن
- ج- والأقوات
- د- والأمن.."

ثم يستطرد الغزالي بكلام جميل فيقول "... ولعمري إن من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، وله قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها..

فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان مستغرقاً جميع أوقاته بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلته إلى سعادة الآخرة؟!.. إذن بان أن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين..". (في عمارة، ١٩٩٨: ٢٢).

وحينما تتجاوب وتتكامل وتتناغم ثوابتنا القيمية مع مشروعاتنا التنموية فبال تأكيد ستهنأ حياتنا بالسلامة الفكرية التي تعزز وتؤكد وحدتنا الوطنية.

الفصل الثاني

فلسفة الوطنية ومفاهيمها

لا تزال مجموعة من المفاهيم في ساحتنا الثقافية والاجتماعية شائكة وغير منضبطة في وعي أفراد المجتمع ومؤسساته، مما يسبب خللاً في الممارسات السلوكية التي هي اليوم أحوج ما يكون إلى دور رائد وشجاع من العلماء والمفكرين ليحسموا ما أشكل منها ومن ثم يسهموا في تشكيل وعي المجتمع فيما يخدم علاقة الإنسان بنفسه وبيئته.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة مفهوم الوطنية كأحد المفاهيم المهمة والاحتاجة إلى رؤية مترنة وحكيمة تنفي ما يتعلق بها من خلل (إفراطاً وتقليطاً) لنؤكد من خلالها على المشاركة الفاعلة والواعية خدمة للمجتمع وأمنه وتنميته.

المبحث الأول:

مفهوم الوطنية وأبعاده الفلسفية:

..في تقديرنا بأن الوطنية هي الإطار الفكري النظري للمواطنة. بمعنى أن الأولى عملية فكرية والأخرى ممارسة عملية. والمواطنة "مفاعلة" أي مشاركة. ويشير عدد من الباحثين بأن مفهوم الوطنية اصطلاح حديث..، إلا أن المعنى الذي تستهدفه الوطنية قد تناولته من قبل أفكار الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين. ويذكر العلواني أن الاهتمام بهذا المصطلح قد نشأ مع ظهور الدولة الحديثة وحدودها الجغرافية والسياسية. ولفظ "مواطن" تعبير لم يظهر إلا بعد الثورة الفرنسية سنة (١٧٨٩) أما قبلها فالناس ملل وشعوب وقبائل لا يعتبر التراب - إلا تبعاً لشيء من ذلك - وسيلة من وسائل الارتباط (في الغنوشي : ١٩٨٩).

...والذي يبدو لنا من وجهة نظر خاصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أول من وضع المعنى الحقيقي لمفهوم المواطنة المستولة والحدود بحدود وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم على جنبات المدينة المنورة كعلامات تقع مسؤولية من أدخل بداخلها تحت دائرة حكم الإسلام ومرجعيتها.

..وتعرض بنود صحيفة المدينة (٤٧ بنداً) مبادئ مهمة لفكرة المواطنة، حيث نصت على تكوين مفهوم الوطنية/المواطنة واحترام حقوقه وواجباته لكل من سكن المدينة مسلماً كان أو غير مسلم. إضافة إلى تحديد النطاق الجغرافي الذي يحاسب عليه أي إنسان اقترب جرمًا داخل ما يسمى بحوف المدينة كما في البند رقم (٣٩ - ٤٤). كما تؤكد الصحيفة مفهوم النصرة المتبادلة بين سكان المدينة مسلمين وغيرهم كما في البند (١٦ - ٣٧)، وتعرض

الصحيفة في مواضع مختلفة أن الاحتكام حين التشاجر والاختلاف هو لله ورسوله (بند ٢٣ - ٤٢) مما يعني تأكيد السيادة الشرعية. وتشتمل الصحيفة على آداب وتنظيمات كثيرة يمكن مراجعتها في مظانها. (مجموعة الوثائق السياسية).

..وتتعدد مفاهيم الوطنية وتعريفاتها فمنها ما يحمل معنى عاطفياً وانتماءً وجدانياً للمكان الذي ألفه الإنسان، ومنها ما يحمل معنى فكرياً يفضل فيه المكان على شريعة الرحمن ومنها ما يؤسس لمعنى قانوني يعبر عن واجبات المواطن وحقوقه تجاه وطنه. ويعرض الزيد (١٤١٧) لعدد من التعريفات منها أن الوطنية تعني "العاطفة التي تعبر عن ولاء الإنسان لبلده". والوطنية عند آخرين تعني "تقديس الوطن وتقديمه في الحب والكره بل والقتال من أجله .. حتى تحل الرابطة الوطنية محل الرابطة الدينية" والوطنية في معناها القانوني الحديث تعني "انتماء الإنسان إلى دولة معينة يحمل جنسيتها ويدين بالولاء لها". وتعرّف الموسوعة العربية العالمية "الوطنية بأنها تعبير قومي يعني حب الشخص وإخلاصه لوطنه (المرجع نفسه). ويستخلص الحسان (١٩٩٥) تعريفاً للمواطنة بأنها "عبارة عن مجموع من الحقوق والواجبات يتمتع ويلتزم بها في الوقت ذاته كل طرف من أطراف هذه العلاقة" (ص ٦٨). ويرى هويدي (١٩٩٥) بأن المواطنة "تعبير عن جوهر الصّلات القائمة بين دار الإسلام وبين من يقيمون في هذه الدار من مسلمين وذميين مستأمنين" (في الحسان، ١٩٩٥). ويضمّن عدد من الكتاب (الحقيل ١٤١٧، والشيخ، ١٤٢٠) مفهوم المواطنة أصول مفاهيم الإسلام حيث تستوجب عدم الإشراف بالله!! والتحلي بالصبر والصدق.. إلخ وهي على حد تعبير ابن الشيخ "ذلك الإنسان الذي يتحلى بصفات العقيدة الإسلامية!!" (ص ١٢). وفي الموسوعة السياسية (١٩٩٠) المواطنة هي "صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءه إلى الوطن" (ص ٣٧٣). ويشير السيد ياسين (٢٠٠٢) بأن مفهوم المواطنة "قانوني في المقام الأول" ثم يؤكد بأن المواطنة هي أساس الشرعية ذلك أن مجموع المواطنين هم الذين يختارون حكومتهم عن طريق الانتخاب. وبالتالي لا يمكن أن نفهم المواطنة من غير تأسيس ديمقراطي في المجتمع.. ثم يضيف بأنه في المجتمع الديمقراطي "فإن العلاقات بين الناس لم تعد علاقات دينية، ولكن أصبحت سياسية ذلك أن العيش المشترك لا يعني بالضرورة الاشتراك في ديانة واحدة، ولكن معناه الخضوع لنفس النظام السياسي..." "وهنا من المهم الإشارة إلى أنه لا يعني أيضاً أن العيش المشترك يستلزم إزاحة سيادة دين الغالبة وإحلال الوطنية لتكون هي المرجعية.

ويطرح قطب (١٩٨٣) منتقداً مفهومي الوطنية والقومية وأنهما من منتجات الغرب فيقول بأن "الوطنية تعني أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك والتعصب له أيّاً كانت أصولهم التي ينتمون إليها وأجناسهم التي انحدروا منها". بمعنى أن الولاء للأرض بغض النظر عن أي اعتبار آخر. ثم يتحدث عن مفهوم القومية الذي يتعدى حدود الأرض ليكون الولاء لأبناء الجنس الواحد أو اللغة الواحدة دون اعتبار لمفهوم الدين.

.. ونجد التجاوز في أبعاد معنى الوطنية والقومية لتشكّل مفهوم العقيدة والدين على سبيل المثال في كتاب (قضية العرب) لعلّي ناصر الدين إذ يقول "العروبة نفسها دين عندنا نحن "القوميين العرب" المؤمنين من مسلمين ومسيحيين لأنّها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا .. مع دعوتها - أي العروبة - إلى أسمّى ما في الأديان السماوية من أخلاق وفضائل وحسنات!" (في المرفعي ١٩٩٧ : ٩) وشواهد مختلفة في كتابات عديدة تحكي هذا المعنى (انظر البنا ١٩٨٧). ويشير قهوي (٢٠٠٤) الاستغراب من الثنائية (القومية والإسلامية) في الخطاب وتسويق هذا المعنى ليعمق الهوية بين العرب ثم يؤكد بأنه لا يمكن إعفاء منتجي الخطاب القومي من بعض التهم الداخلية والخارجية وفي الوقت نفسه لا يمكن إعفاء غيرهم. ومن خلال متابعتنا لاعترافات المتهمين للإخلال بالأمن يتضح صدق هذه المقولة في كون توجهات التطرف للخارج دور كبير في تغذيتها. ثم يؤكد قهوي بأن المهم الذي يبقى هو رفع معدل الوعي من إنتاج مزيد من العلاقات الوهمية والسياسية والتحذير من منتجي الانقسامات لأن كل هذه الانقسامات هروب من مقتضيات المواطنة إلى ما دونها. وإلى ذلك يشير محمد قطب (١٩٨٣) في كتابه "مذاهب فكرية معاصرة" بأن هذين المفهومين تم تصديرهما من الغرب لقصد إمالة نزعة الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار ومن ثم تحويلهما إلى حركات وطنية وبالتالي تحويل هذه الحركات إلى قوى وطنية سياسية ليسهل التعامل معها دون لغة الجهاد. ويذكر أن هذا الاتجاه المستورد إنما ولد في دار المندوب السامي البريطاني ليكون بديلاً عن الراية الإسلامية. ثم يؤكد على رفض هذين المفهومين بالقول بأن هذا المنهج الفكري "يعني بكل صراحة أن يكون المشترك الذي يشاركك في قوميتك أقرب إليك من المسلم الذي ينتمي إلى قومية أخرى" (ص ٥٨٨).

وإلى هنا يتبين من خلال هذه الجولة المختصرة لمفهوم الوطنية مدى تباين المفاهيم وسعة الاختلاف فيما بينها (رفضاً وقبولاً) مما يؤكد الحاجة إلى طرحها للنقاش للوصول إلى فهم أكثر عمقاً وواقعية علمية ذلك أن هناك من يتحدث عن المفهوم - كما تبين - ويخلط بينه وبين مفاهيم العقيدة والشريعة الإسلامية ومنهم من يجعله عقيدة في ذاته إلى غير ذلك مما سبق طرحه. والملاحظ المهم إزاء ذلك كله أن هناك من يتحدث دون تخصص ويلغي من حساباته أحياناً اختلاف البلاد وأنظمتها وسياساتها وخصوصياتها من جهة واختلاف استخدام المفاهيم والمصطلحات العلمية وما يترتب عليه من جهة أخرى.

المبحث الثاني:

الوطنية في نظر الغربيين وفلسفاتهم :

... تتراوح أطروحات الغربيين بين رؤى تختصر العلاقة بين الفرد ودولته إلى أدنى درجة ممكنة وبين أخرى ترى أن الفرد لا يعني شيئاً أمام دولته، ففي الأولى لم توجد الدولة إلا من أجل الفرد وفي الأخرى لم يوجد الفرد إلا لخدمة دولته. .. ويعتمد منظرو فلسفة المذهب الفردي أمثال "جون لوك" و"جان جاك روسو" على أساس

الاعتراف بحقوق الإنسان وحياته العامة باعتبارهما حقوقاً طبيعية لكل فرد وليست مكتسبة، ومهمة الدولة احترام وضمان تلك الحقوق (المنافسي في الحسان : ١٩٩٥).

..وإذا كان المذهب الفردي يتجه إلى المساواة النظرية بين أفرادها فإن الواقع الفعلي يؤكد عدم تساوي الأفراد في ظروفهم وقدراتهم وبالتالي فإن "البقاء للأصلح" كمبدأ يتبناه هذا الاتجاه لا يتفق مع القيم الإنسانية والشرائع السماوية بل ويهدم حقيقة المواطنة الحقبة التي هي مقصد هذا البحث، ذلك أن هذا التوجه الفكري يرسخ سلبية الانتماء للمجموع (الوطن) وبالتالي يعزز الأنانية ويعمق الفصل بين الأفراد ودولتهم. ..وفي مقابل الجدل القائم لضمان مجتمع آمن ومستقر من خلال مواطنة عادلة ومسؤولة، يطرح المذهب الاشتراكي أنه لا معنى للحرية الفردية في ظل صراع المصالح الخاصة للطبقة الرأسمالية وما جدوى الحرية المضمونة بالدستور إذا كان الإنسان لا يجد الحماية من المخاطر والابتزاز بل وما فائدة حرية العمل إذا كان المواطن يترك فريسة للبطالة مما يضطره إلى التنازل عن حريته وكرامته لمواجهة شروطاً حياتية صعبة. ..وهكذا يطرح هذا التوجه كما تذكر بعض الدراسات (قطب ١٩٨٣، الحسان ١٩٩٥) أساس فكرة المواطنة على أن الدولة مسؤولة عن الفرد ابتداءً وانتهاءً فلا مظهر للملكية فردية فالكل يخدم الدولة والدولة تحدد دخول الأفراد حسب الحاجة وتشرف على الإنتاج ونوع المنتج وتلحق الأفراد جميعاً في خدمة الدولة سعياً نحو التطبيق والتحقيق

للمساواة

(هكذا يظنون!). وكان من رواد هذا التوجه (فرنسوا فرييه، وروبرت أوين) ولكن الشخص الذي ارتبط اسمه بهذا التوجه الفكري هو "كارل ماركس".

...وترتكز فلسفة هذا الفكر على إلغاء الملكية الفردية التي يُعتقد أنها الباعث الحقيقي لعملية الصراع الاجتماعي. ولذلك اعتمدت على مبدأ العمل للدولة فقط وفق شعار "من كل حسب طاقته ولكل بحسب حاجته". ويشير قطب بأن الملكية الجماعية لا تعني إمكانية امتلاك مجموعة من الناس لمصنع أو متجر أو مزرعة، وإنما المعنى أن المالك الوحيد هو "الدولة"، والدولة في حس هؤلاء تمتلك هذه الأشياء نيابة عن طبقة (البوليتاريا = Proletariat) ذلك أن العامل بمجده هو المنتج الحقيقي للمادة. ومن الواضح بأن هذا التوجه الفلسفي يلغي معنى الشخصية ويقتل المبادرات الفردية ويحطم القدرات ويعزز تسلط الدولة بل ويخلق السلبية تجاه الوطن نظراً لحرمانه من فطرة حب التملك. ..وإذا كان التوجه الاشتراكي يترع إلى محو طبقة الرأسمالية وتحكمها في سير الأمور، فإنه في الوقت ذاته خلق تسلطاً أكثر قسوة وبطشاً من خلال سلطة الحكومة.

...وهكذا تراوح الرؤى والفلسفات في الغرب بشكل ينقض بعضه بعضاً من أجل خلق مواطنة فاعلة منتجة ومسؤولة.

... وإذا كان الفكر الاشتراكي قد استنفذ أغراضه وتساقط فإن التخوف قائم مشاهد لدى كثير من المفكرين الاجتماعيين على أن الغرب الليبرالي هو في الطريق إلى لك - والانهيارات الاقتصادية الأخيرة تعزز هذا التوجه - . ويعزو المفكر المستقبلي (اينشارد ابركسلي) التفكك الاجتماعي في الغرب إلى الفشل في إعطاء " معنى وانتماء وهدف لحياتنا، وعدم وجود إطار عمل لقيمنا، وتجريدنا من معنى أوسع لحياتنا، فقد دخلنا في حقبة يتزايد فيها انشغالنا بذاتنا بشكل مَرَضِي (في ابرلي ، ٢٠٠٣ : ٢٠).

.. وقد وثق المفكر الدارس للتقاليد (جون هوارد) الشريحة العريضة من المفردات وما تشتمل عليه من مفاهيم، والتي اختفت من فوق التراب الأمريكي، فقد اختفت كلمات مثل التواضع، والاحتشام، والأمانة، والاستقامة، والتأدب، والفضيلة، والنخوة، وعكسها مثل العار والعيب من الاستخدام الحالي. "وهي لا تدخل في حسابات المناقشات العامة وصنع القرارات" .. وإلى هنا يتساءل "أبراهام لنكولن" هل أصبح الأمريكيون منهمكين في شؤونهم الخاصة ولا يحركهم سوى الوعد بالمزيد من الحقوق والمكتسبات أكثر مما يحركهم الدعوة (للوأجب الوطني). (المصدر نفسه)

.. وهنا أجد لها لمحة اجتماعية مهمة ووقفة حول تركيز معنى الوطنية على أنها فقط مجرد مسألة حقوق وواجبات دون بعد يحمل معنى (الضابط الأخلاقي) ذلك أن حركة الإنسانية إذا ربطت فقط بمعنى القانونية (حق وواجب) فإن آداباً وسلوكيات عدة سوف تغيب عن معنى الحياة الاجتماعية كما هي تغيب اليوم عن حياة المجتمع الغربي بشهادة خبرائهم الاجتماعيين.

... ولذلك فالسمو على الحسابات الشخصية هو في تقديرنا "مبدأ روحي لمعنى المواطنة" ويعد إبيرلي (٢٠٠٣) تغذية التعاطف الاجتماعي الصادق بين الناس هو العنصر الرئيس

لخلق المواطنة، كما أن تجديد المواطنة يعني إعمال الفرد في المشاركة الاجتماعية وعدم تفويض شؤون الحياة العامة والمساعدة العامة بكاملها إلى اختصاصي الحكومة، وأن تسعى البرامج إلى تعزيز البنى الوسيطة.. وجمع الفقراء وغير الفقراء معاً كجيران ومتطوعين وشركاء في المسؤولية الاجتماعية. وإذا ما تجردت حياتنا الاجتماعية من مضامينها الدينية والأخلاقية فإن مادية الحياة العصرية سوف تعيد إشكالية التوتر والصراع إلى الوجود. ومما تجدر الإشارة إليه هنا بأن تجربة المجتمعات الغربية إجمالاً سواء اقترنت أو ابتعدت من وعـن تفـعـيـل معـنى

الوطنية فإن للمجتمع المسلم وبالأخص بلاد الحرمين الشريفين خصوصية في ذلك،.. ذلك أن الالتزام الديني حينما ينضاف إلى الممارسة العملية لمفهوم الوطنية، يشكل مرجعية في ضبط هذا المعنى دون مغالاة أو إجحاف لكل من حق الفرد في الحرية وحق الحكومة في السيادة. وفي تقديرنا أيضاً يجب ألا تصاغ الوطنية على أنها عملية "حق وواجب" وذلك أن هذا الطرح لا يسمو إلى كون الوطنية انتماءً طبعياً مغروزاً في الإنسان يستثير الإنسان للعمل والغيرة على بلده دون الحاجة (ابتداءً) إلى أن

يكون ذلك متطلباً قانونياً أو مشروعاً سياسياً. ذلك أن الالتزام الوطني الأخلاقي هو الفاعل والمفعّل لمنظومة الحقوق والواجبات، والذي ينعكس بدوره على أمن البلاد واستقراره.

وإذا كان المجتمع هو نسيج من العلاقات المحملة بالمشاعر بين مجموعة من الأشخاص الذين يلتزمون بمجموعة من القيم المشتركة، فإن علماء كثر بارزين في الاجتماع الإنساني أمثال (روبرت بوتنام ٢٠٠٠، وفرانيس فوكوباما ١٩٩٩، إيتزوني ٢٠٠٥) يؤكدون على أن الانشطارات الاجتماعية والانقسامات، غالباً ما تؤدي في النهاية إلى فقدان العلاقات الاجتماعية والتي بدورها تشعر الإنسان بالعزلة والانسلاخ والعجز ويدفع به إلى الابتعاد أكثر عن المجتمع أو إلى التصرف العدائي حيال المجتمع والانضمام إلى العصابات والميليشيات (لكي يجد نفسه ضمن مجموعة) أو يدمن من استعمال الكحول والمخدرات أو كليهما (إيتزوني : ٢٠٠٥). وهذا التحليل للواقع الاجتماعي نجده في أغلب كتابات علماء الاجتماع أمثال دوركايم وتوكفيل وتونيز وغيرهم. وهذا يؤكد على أن كل مامن شأنه تغذية الروح الجماعية والتكافل الاجتماعي والمشروعات الاجتماعية والوطنية المشتركة ، كل ذلك وغيره يعزز من تغذية المواطنة ويقلل من نقيضها.

واستجماً لما ذكر يمكن القول إن مفهوم الوطنية وممارسة المواطنة يعكس التزاماً أخلاقياً تجاه المكان الذي يسكنه الإنسان بدءاً بالحب وانتهاءً بتجسيد متطلباته فكراً بالولاء والشعور بالانتماء وعملاً بالعطاء المتبادل البناء بين الوطن ومسؤوليه ومن يسكن فيه.

وإلى هنا يتبين مدى التلاقي والتأثير المتبادل بين مفاهيم الأمن والفكر والوطنية، إذ إن انتظام المفاهيم الأولى ينعكس على الثانية قوة وضعفاً والعكس صحيح. ويؤكد عمارة (١٩٩٨: ١١١) بأنه " لا سبيل إلى الأمن على إقامة الإسلام، أو إقامة الأمن الفكري والاجتماعي الذي يريده الإسلام إلا بوطن آمن، يكون الوعاء الذي يأمن فيه الإنسان على إسلامه، ويحقق فيه الإسلام الأمن لهذا الإنسان".

المبحث الثالث : الإسلامية والوطنية:

..استجابة التشريع الإسلامي لسنن الحياة الاجتماعية أمر جلي وواضح، لكن استجابتنا نحن أو تقديرنا للمسألة الاجتماعية محل النقاش قد يشوبها غيبش أو خلل وذلك الذي يحتاج إلى مداورة ونقاش.

..وهنا فالإسلام يعترف بعملية الانتماء الاجتماعي "للأسرة" (ادعوهم لأبائهم) "والقبيلة" (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) و"الدولة" (وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه) وجعلها أحد مقاصد الحياة الاجتماعية. ونسب القرآن الرجل لبلاده، ولكنه في الوقت ذات أكد على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أنه "ليس منا من دعا إلى عصبية" أو جاهلية أو قومية وأحداث السيرة مليئة بشواهد كثيرة في هذا المعنى. .. لكن المسألة المهمة هنا هي أن تجاوز الناس لحدود معنى القبيلة أو العصبية أو الإقليمية لا يعني إبطال مفهومها أو فعلها إسلامياً وفطرياً، ذلك أن الإسلام لم يأت ليمنع ما فُطر عليه الناس لكن ليهذب ذلك المعنى وذلك السلوك. وما أكثر ما تنتهك الوطنية في مختلف المجتمعات بسبب العصبية والعنصرية والقبلية والإقليمية والزماله.. إلخ وكل ذلك من خروقات تقع على الوطنية الحقيقية وسمة جاهلية كما عبر عن ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابي الذي تلفظ - مخطئاً -

"يا بن السوداء!!.. ذلك أن السواد والبياض ليس صنعة بشرية وإنما إرادة إلهية ، ومن يستنقص الخلق فإنما يتجرأ على الخالق. ومن يقدم من لا يستحق على من يستحق فإنما يخرق الوطنية ويؤء بإثم كل واحد حُرْم من قدرات ومهارات من كان أهلاً لذلك المكان!! وكل هذه المظاهر السلبية للممارسات اللاوطنية تنعكس على حياتنا الاجتماعية بل وتؤثر سلباً في خلخلة وحدتنا لفكرية.

..والذي يجعل البعض يقف سلبياً أمام مصطلح الوطنية أو القومية كما يشير الأنصاري (1999) إنما هو خطأ المفكرين القوميين بتحويل هذا المفهوم والتعبير عنه بأنه(عقيدة). وفي ذلك تجاوز للحد والوظيفة التي يجب أن يقف عندها دور هذا المفهوم .

..وإذا ما أردنا تجاوز الاحتداد بين هذا وذاك بين فكر التضاد و الإلغاء بين من يرى أنها وسيلة الوحدة وبين من يرى عدم أهميتها ألبتة، فإن المنهجية العلمية والموضوعية تستدعي أن نطرح فكراً يتجاوز حدود المصادمات ويؤصل لتشكيل فكر ناضج وواع ومؤصل ومستوعب لتحديات الذي يشهدها عالمنا العربي الإسلامي اليوم.

..إن من الأهمية بمكان القول بأن مفاهيم الإلغاء والإقصاء والتكر دأماً ما تخالف طبيعة الحياة وبالتالي يصعب عليها إكمال مسيرتها.. فالاعتراف بوجود الأشياء وما يضادها بغض النظر عن قبولها أو رفضها هو سنة حياتية جارية، هذا فضلاً عن قدرتنا

ومهارتنا الفكرية والذهنية على التأليف والتوظيف الأمثل للدور المناسب والأكمل لكل فيما يخصه. وذلك أن كل إلغاء للآخر هو مسلك مخاف لطبيعة الحياة. ولذلك فالأصل هو استهداف الحكمة المشروعة في التعامل مع الأفكار والأشخاص والمفاهيم والمقتنيات .

ومن هنا نؤكد على أن إقصاء " البعد الإسلامي " من أجل الوطنية وإحلالها إجمالاً كمنهج توحيد وطني لا يتناسب وسيادة التشريع الإسلامي ومرجعيته في البلد المسلم، وبالمثل فإن نفي " البعد الوطني " وأهميته في احترام خصوصيات الشعوب والأفراد وفي انتماء الإنسان ووجه لوطنه وسعيه لنهضته وتنميته والدفاع عنه خلل

آخر. وهنا يشير الشيخ ابن حميد (رئيس مجلس الشورى السعودي) إلى أن الحقيقة التي لاشك فيها هي أن الإسلام يؤكد على إعلاء الرابطة الدينية على كل رابطة سواها، سواء أكانت رابطة نسبية أم إقليمية أم عنصرية، فالمسلم أخو المسلم، والمسلم أقرب إلى المسلم من أي كافر بدينه، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهذا ليس في الإسلام وحده بل طبيعة كل دين وكل عقيدة. (23:1423) .. والوحدة المطلوب تبنيتها على مستوى العقيدة غير تلك المطلوبة على مستوى الوطن فالأولى أرقى وأسمى من أن تحدّها الحدود والأخرى بطبيعتها ووظيفتها لها حدود. والفكر الذي نستشعر أهميته مراجعته هو القبول بالجملة أو الرفض بالجملة للوقائع والمسائل والمستجدات الحادثة، ولذلك فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى "منهج يعتمد على

التفصيل في الأشياء والموازنة بين الأمور" وذلك منهج شرعي نحتاج إلى مدارسته وتجسيده " وإثمه أكبر من نفعهما " توجيه قرآني لم ينف وجود المنفعة حتى فيما نص على تحريمه!! . وذلك ما نحتاج إلى ممارسته عملياً في متغيرات المجتمع المحلي والعالمي الذي نعيشه. ومن هنا فالفهم الذي نريد التأسيس له وتأصيله .. اجتهاداً هنا هو أن الحدود الواقعية معتبرة وأن وحدة الأمة عالمياً لا تتنافى وخصوصيتها وطنياً، فلكل أهمية واعتباره وآثاره لكن نفي أي منها على حساب الآخر يعكس تقصيراً في استدراك حقائق الوطنية وأبعادها ومقاصدها من جهة والشرعية الإسلامية من جهة أخرى. وإلى هنا ننتقل إلى الفصل الثالث لنشرّح الواقع الاجتماعي السعودي محللين منظومته الفكر/اجتماعية، وما يعيشه الواقع من تشوه فكري تغذيه سلوكيات سوف نحدد ملامحها ومن ثم نخرج بتحديد اشتراطات نضمن من خلالها تنوعاً محموداً يغذي الوحدة الوطنية يسير في سياقها لا على حسابها، محاولين الإجابة عن تساؤل رئيس هو: كيف يمكننا تحقيق أعلى قدر من الاتساق الفكري بين أعضاء المجتمع السعودي من أجل ضمان أمن البلد واستقراره وتنميته.

الفصل الثالث

الوطنية والتعددية الفكرية في السعودية

الوطنية مفهوم متعدد الأبعاد.. إذ لا تحتوي الوطنية على المعنى السياسي فحسب، إنما تشمل أيضاً معنى ثقافياً واجتماعياً وأخلاقياً. بل إن الوطنية يمكن أن تكتمل بالمعنى الإسلامي/الديني حينما يقدر الإنسان مكتسبات وطنه ويحمي أراضيه ويسعى لتنميته بكل جهد أو فعل يشارك فيه. ومن هنا فيجب أن نضع في الاعتبار بأن مفهوم الوطنية من الشمولية. يمكن بحث يستوعب عدة معانٍ في السياسة والاجتماع والسلوك والأخلاق. ويتفق علماء الاجتماع السياسي على أن مفهوم الوطنية أخذ طابعه السياسي بعد أن تشكلت الدول وفرضت الحدود الجغرافية. وهنا نجد أن مفهوم الوطنية مفهوم محصور في المعنى السياسي كما يصوره لنا علماء سياسة الغرب، وهذا في الواقع ضيق كثيراً من مفهوم الوطنية وجعله مفهوماً سياسياً أكثر منه مفهوماً إنسانياً شاملاً.

ودون شك في أن الفكر السياسي الإسلامي لا يعترض على المعنى السياسي لمفهوم الوطنية، ولكنه يعطي لهذا المفهوم اتساعاً بحيث يصبح مفهوماً أكثر شمولاً. فالمواطنة الصالحة ليست حكراً على مكان دون آخر بل هذه الممارسة مطلوبة في كل زمان ومكان في الداخل والخارج. ولعل أبرز من أعطى لمفهوم الوطنية اتساعه الإنساني المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث قال: (ليس منا من دعا إلى عصبية). وبرده حين الشجار على من قال مستنجداً بعصبية (ياللأوس.. ياللخزرج!) فقال "أبدعوى الجاهلية!، وأنا بين أظهركم؟!" وفي هذا الحديث نجد الرسول الكريم يحرص على التلاقي الإنساني بين كل فرد في المجتمع الإسلامي. وهذا التلاقي يجعل لمفهوم الوطنية أساساً ثقافياً اجتماعياً وأخلاقياً إلى جانب الأساس السياسي. وفي هذا السياق فالإسلام تجاوز المعنى السياسي الضيق لمفهوم الوطنية. ذلك أن إبراز المعنى السياسي على كل المعاني الأخرى في مفهومها للوطنية يعطي الوطنية صورة فكرية مشوهة وقاصرة، حيث سيكون الانتماء السياسي أو الولاء السياسي للقبيلة أو العائلة أو الجماعة التي يولد فيها الفرد على حساب انتمائه الإنساني أو ولاءه للوطن زماناً ومكاناً.

المبحث الأول:

أنموذج الصورة السليمة للوطنية:

وفي ضوء ذلك نرى أن الإسلام يعطي مفهوماً إنسانياً شاملاً للوطنية. ذلك المعنى الذي ينصهر فيه الولاء أو الانتماء من الجزء إلى الكل، بحيث لا يتوقف امتداد الولاء أو الانتماء عند حدود العائلة أو القبيلة أو البلدة، وإنما يتسع ليشمل كل شيء من مكان الوطن وزمانه ودون حدود لمعنى السياسة والجغرافيا أن (قولوا للناس حسناً) (وتعاونوا على البر والتقوى) بل وفي حال عدم الوفاق أيّاً كان (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى) ..

وفي الواقع أن الدول يجب أن تكون هي موضوع التقاء كل التوجهات والأفكار والآراء التي تعكس نوعاً من التعددية الثقافية/الفكرية في المجتمع. إذ إن الوطنية إذا لم تكن فوق "التعددية الثقافية" فلن تكون لها جذور في سلوكيات الأفراد والجماعات. وهنا يمكن القول: بأن من أبرز المشكلات التي تواجهها الوطنية اليوم هي: مشكلة التعددية الفكرية. وهذا ينطبق على كل المجتمعات الإسلامية بما في ذلك المجتمع السعودي.

مكونات الوطنية:

الوطنية - كما أشرنا سابقاً - ليست مفهوماً سياسياً فحسب، بل إنها مفهوم يستوعب مجالات مختلفة في واقع حياتنا الاجتماعية. وهذا الفكر مقيد بحدود الزمان والمكان. ولا يستطيع البحث العلمي التزيه أن يُجرد الفكر الوطني الإنساني من حدود الزمان والمكان. وإذا كان الإسلام يعطي لمفهوم الأمة تصوراً شاملاً أو كلياً يتخطى حدود المكان والزمان. فإن ذلك التصور - كما أشرنا - لا يتعارض مع تصور الوطنية في حدود الزمان والمكان. ذلك أن التصور السليم للوطنية له مستويان هما:

أ- مستوى العلاقة بين الفرد ووسطه الاجتماعي .
ب- مستوى العلاقة بين الفرد والوسط الاجتماعي الإنساني العالمي. وركي الوسط الثاني يعتمد اعتماداً كلياً على رُقي الوسط الأول. فإذا حافظ الفرد على اتزان حبه وانتماءه لوطنه وأهله وأبناء عشيرته فإنه من الطبيعي أن يحافظ على ذلك بالنسبة للأمة.. بل والعالم أجمع.

غير أن القوى العالمية المعاصرة لا تريد للوطنية أن تنمو في هذين المستويين. وإنما تريد هذه القوى استبدال الوطنية /ال محلية بالتغريب Westernization والوطنية/العالمية بالعولمة Globalization ولا شك أن عملية الاستبدال هذه تتم بوسائل الترغيب والترهيب. ووسائل الترغيب كثيرة منها الانضمام إلى اتفاقيات التجارة العالمية والمشاركة في المشروعات وإقامة منطقة تجارية عالمية في المنطقة

الإسلامية وغيرها من المنظمات والشركات العالمية. ووسائل التهريب كثيرة منها: الحرب الإعلامية على القيم الإسلامية، والغزو العسكري وتغذية الصراعات الطائفية. والمتتبع لواقع المجتمع السعودي ومسيرته يجد أن الوطنية السعودية تواجه صراعاً في إطار التحديات والتغيرات الدولية المعاصرة. ويمكن القول بأن الوطنية السعودية هي: مجموعة الأفكار والقيم المرتبطة بثوابت الزمان والمكان والتي تمتد لتشمل مستوى العلاقة بين الفرد ووسطه الاجتماعي وتشمل مستوى العلاقة بين الفرد ووسطه الاجتماعي الإنساني العالمي.

ويذكر الزبيدي (١٤٢٦) بأن المواطنة تتمثل في العناصر الكبرى التي تتبادل الحقوق والواجبات والمتمثلة في :

أ- الشعب

ب- المؤسسات

ج- الدولة

وبين هذه المكونات بشكلها الفردي والجماعي حقوق وواجبات تفرضها طبيعة الثقافة التي يعيشونها. ففي الدولة المسلمة للمسلم على المسلم حقوق وواجبات وبينه وبين مؤسسات مجتمعه وبينه وبين دولته وولادة أمره حقوق وواجبات، والمطلب الأهم هنا هو تفعيل قضية المواطنة مستلهمة من الشريعة ومصبوبة في قوالب عصرية مناسبة.

ولعل أبرز المكونات الرئيسة للوحدة الوطنية في المجتمع السعودي تتمثل في :

أولاً: وحدة العقيدة

فليس في المجتمع السعودي من يخالف هذه المسلمة العقدية.

ثانياً: وحدة التشريع:

فالكل يحكم ويتحاكم وفقاً للكتاب والسنة.

ثالثاً: وحدة القيادة

فالمجتمع السعودي يبايع حاكمه من الأسرة الحاكمة أبناء المؤسس الملك عبدالعزيز طيب الله

تراه وفق دستور له ضوابطه التي هي محل احترام جميع المواطنين.

رابعاً: وحدة الأرض

التي لها حدودها السياسية والسيادية المعروفة والمعترف بها دولياً، بل ومحل تقدير المسلمين

بشكل أحص لأهلها قبلة المسلمين وأرض الحرمين الشريفين.

والمتمعن في نظام الحكم السعودي يلاحظ خصائص وسمات اجتماعية لا تعكس كما يرى السيف (١٤٢٤)

موقفاً سياسياً فقط وإنما تجسد منهجاً اجتماعياً يعكس ويستجيب لطبيعة المجتمع السعودي، فهو على سبيل

المثال يتغاضى عن القبيلة ويجعل الأسرة هي نواة المجتمع، إذ يقرر نظام الحكم في مادته التاسعة في الباب الثالث

على أن " الأسرة هي نواة المجتمع السعودي " كما يؤكد في معظم مواده على أن دين البلاد هو الإسلام والدستور هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ تنص المادة الثالثة والعشرون من الباب الخامس والخاص بالحقوق والواجبات على ما يلي " تحمي الدولة عقيدة الإسلام وتطبق شريعته وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقوم بواجب الدعوة إلى الله.. ". وكل هذه الركائز تدعم وحدة الوطن وتحد من التمزق الاجتماعي. بل إن المادة الثانية عشرة من نظام الحكم في الباب الثالث تؤكد على مقومات المجتمع السعودي بهذا النص " تعزيز الوحدة الوطنية واجب وطني وتمتع الدولة كل ما يؤدي للفرقة والفتنة والانقسام ". وأهم ما يمكن أن تقف خلفه الدولة لتعزيز فكر الوطنية وممارسة المواطنة في المجتمع " تحقيق مبدأ المساواة بين المواطنين " .. والمراد هنا كما يشير النبهان (1988)

تلك المساواة التي تتضمن الآتي:

1- المساواة في المنافع الاجتماعية: بمعنى التمتع بالحقوق وعدم التفاوت فيها.

2- المساواة أمام القضاء: فالجميع متساوون في نظر القضاء تحت سيادة الشريعة.

3- المساواة أمام القانون: فلا امتياز لحسب ولا نسب أمام أنظمة الدولة.

4- المساواة في تولي الوظائف العامة: فكل مواطن يستطيع تولي أي وظيفة حسب مؤهلاته وقدراته.

5- المساواة في التكاليف المادية: والمعنى أنه كما أن للمواطن حقوقاً محفوظة فعليه من الواجبات المادية التي يدفعها للدولة نظير خدمات يتمتع بها كغيره من المواطنين تحقيقاً لمبدأ " الغنم بالغرم ".

ومع كل هذا فاستشعار " الكل " - فرد، مجتمع، دولة - لمسئوليته، وتوظيف " الكل " كل حسب قدراته وإمكاناته لخلق مواطنة فاعلة ولتحقيق تنمية شاملة ومستدامة هو الطريق العلمي والحضاري لتحقيق التكامل المطلوب ودفع العملية الوطنية لتسير (آلياً) دونما حاجة إلى سياسات ضاغطة تجبرها على ذلك.

المبحث الثاني:

إشكالية التعددية الفكرية:

التعددية الثقافية/الفكرية في حد ذاتها ليست مشكلة، فمن حق كل فرد وكل جماعة أن يكون لها من الطرائق الفكرية والمذهبية ما تريد. ! ولكن شريطة أن تكون كل المرجعيات الثقافية قائمة على أساس المصالح الوطنية العليا، ولا تشكل خرقاً لمسلمات الوطن. وهذه المصالح الوطنية العليا إنما هي مصالح المجموع وليست مصالح خاصة منعزلة تؤدي في النهاية إلى الصراع الفكري في المجتمع. ذلك الصراع الذي يمكن أن يشعل نار الفتنة

والانقسام الاجتماعي والإنساني ويغذي قنوات التطرف والإرهاب ليقضي على كل قيمة شريفة دينية كانت أو وطنية.

وفي الواقع أن الوطنية - بطبيعتها - يجب أن تحتوي التعددية ومن ثم تؤدي إلى التلاقي الثقافي، وهنا فإذا كانت الوطنية مجموعة من القيم الأخلاقية والسياسية فهي أيضاً مجموعة من القيم السلوكية. ولا يمكن بأي حال الفصل بين القيم والسلوك في مجال الوطنية.

الشروط الاجتماعية اللازمة للاتساق:

"اتساق وتلاقح الفكر الوطني السعودي"

حرصت الدولة السعودية خلال مسيرتها التاريخية على تعبئة المواطن السعودي تعبئة موجهة نحو الولاء لأركان وأجهزة الدول الناشئة وفي تقديري أن هذه التعبئة كانت ولا تزال تعبئة تقليدية إذ اقتصر على مظاهر بسيطة وبشكل أحص في مجال التربية الوطنية.

ذلك المجال الذي يقتصر على تعليم الطلاب والتلاميذ قيم الولاء للدولة. وسواء اقتصر هذا المجال على التعليم المدرسي أو امتد إلى الشارع السعودي عبر وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، فإن هذه التعبئة تحتاج إلى جهود ومشروعات متعددة لاستيعاب ومواجهة الآثار السلبية للتعددية الثقافية في المجتمع السعودي. إذ لا زالت القبليّة والإقليمية لها نفوذ سلب في الحياة اليومية، ولا تزال المنظومة الفكرية للأفراد تعيش في حدود ضيقة. ومثل هذه الظواهر الاجتماعية السلبية تجعل من الصعب حدوث اتساق أو تلاقح بين الرؤى والاتجاهات والثقافات خصوصاً مع المتغيرات العصرية المتسارعة. ومن أجل ذلك نطرح السؤال التالي:

كيف يمكننا تحقيق أعلى قدر من الاتساق الفكري بين أعضاء المجتمع السعودي في الوقت الراهن من أجل أمن الوطن واستقراره وتنميته؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تجعلنا نتحدث عن الشروط الاجتماعية اللازمة للاتساق في الفكر الوطني السعودي. وقبل تبين هذه الشروط أرى بداية أن "الاتساق في الفكر الوطني السعودي" يتطلب توافر عاملين مهمين وهما:

(١) سلامة المقصد في التوجه الجماعي الوطني نحو الاتساق = التلاقي. لأنه ما لم يكن هناك دافع عميق وصادق لتجسيد هذا المعنى فكل جهد مهما كان مصدره لن يكون له معنى. ولذلك يجب اطراح كل المقررات السابقة في سبيل تدعيم هذا المعنى.

(٢) الوعي الجمعي/الكلّي بالتهديدات الخارجية والداخلية للذاتية الوطنية. وسلامة القصد في الحقيقة لا تكفي ما لم يكن هناك وعي لطبيعة المرحلة التي يعيشها المجتمع من حيث المتغيرات وما يترتب عليها من احتياجات. ومن المؤكد بأن توافر هذين العاملين في البيئة أو الوسط الوطني السعودي سيجعلان من السهل والميسور تحقيق الدرجة المعقولة أو المطلوبة من الاتساق ومن ثم الانطلاق في الفكر الوطني السعودي. والاتساق المطلوب لا يعني إلغاء الذات وتذويب المبادرات ولكنه يؤكد على تغييب الفروقات والانتماءات حينما يكون الحديث عن وحدة الوطن وسلامة أراضيه ومنجزاته ومسلماته وأي مصلحة عليا للوطن.

وهنا نرى بأن الشروط الاجتماعية لتحقيق الاتفاق في الفكر الوطني السعودي تتمثل في الآتي:

الشرط الأول:

ربط المشكلات/الاحتياجات الفردية بالسياق الاجتماعي العام أو بالبناء الاجتماعي: ومن المؤكد أن هذا الشرط يساعد على إيجاد التآلف الوطني بين الفرد ومؤسسات المجتمع. وفي تصوري أن مؤسسات الدولة قامت ولا زالت تقوم بمجهودات وطنية في هذا الاتجاه منها على سبيل المثال: مشروعات القرض الحسن التي تهدف إلى مساعدة الشباب على العمل والكسب ومشروعات بناء المساكن لبعض الفئات والشرائح الاجتماعية الفقيرة وذات الدخل المحدود. والمشروعات الخاصة بمساعدة الشباب على الزواج والدراسة. ومن ذلك أيضاً الحملات الوطنية لطالبي العمل ومساعدتهم. وفي هذا السياق يحذر عالم الاجتماع الأمريكي (روبرت بيللا: ٢٠٠٣) المختص بالمجتمع المحلي من خارقة تدمير الحياة المدنية وإضعاف المؤسسات الحيوية التي تحافظ على المجتمع البشري مثل الزواج والأسرة والدين ومؤسسات النفع العام الاجتماعية. ثم يشير إلى الفردية والعنصرية بوصفهما مصدر تفكك للعلاقات الاجتماعية.. ولكي يتم إصلاح المجتمع المدني فلا بد من معالجة مثل هذه القضايا الصعبة (في إبريل ٢٠٠٣). والمعنى هنا أن كل ما يكون همّاً لأفراد الوطن يجب أن يأخذ بعداً وطنياً في الفعل والتفاعل وذلك مما يغذي فكر الوطنية السعودية.

الشرط الثاني:

تأصيل وتأسيس مبدأ الحوار والمناقشة الفكرية بين الفئات والجماعات المختلفة في المجتمع من خلال قنوات متعددة:

والهدف الوطني لمثل هذا الطرح في المقام الأول يهدف إلى تذويب التناقضات وأسباب العزلة الفكرية والنفسية بين الناس. فمن المهم جداً أن يتحاور أعضاء المجتمع ويتناقشون بهدف الترابط العضوي والفكري والتكيف الوطني مع ظروف المجتمع وتحديات الداخل والخارج. وكما يقول الاجتماعيون لا يمكن للدولة في عصر المتغيرات أن تقوم بكل شيء. وبالتالي فقيام مؤسسات اجتماعية تعنى ببحث ثقافة الحوار وتنمية الفكر والتلاقي الثقافي يعد مهمة وطنية تحتاج إلى وعي بها ومن ثم ممارستها في مؤسسات المجتمع المختلفة رسمية وغير رسمية.

ولعل جهد الدولة في إقامة مركز للحوار الوطني هو خطوة في المسار الصحيح ووسيلة مهمة في بث وتنمية ثقافة الحوار والتلاقي بين أفراد المجتمع السعودي وأطيافه. ولكن هذه الوسيلة تحتاج إلى تفعيل أكبر وأكثر لتكون ممارسة عملية في كل مدينة وفي كل مدرسة وجامعة. كما أن نظام الانتخابات البلدية يعد شكلاً مهماً في مشاركة الإنسان السعودي لممارساته الوطنية. وهذا المسار المدني في مؤسسة العمل الاجتماعي يعمق من تنامي حس الوطنية وبالتالي تنمية معنى المواطنة في المجتمع .

الشرط الثالث:

مواجهة ظاهرة التعصب والتشدد وغير ذلك من الظواهر السلبية التي تعوق حركة الاتساق في الفكر الوطني السعودي ...

ذلك أن المرحلة التاريخية الحالية تتطلب بل تفرض علينا نحن أبناء الوطن الواحد قدراً كبيراً من المرونة الفكرية التي تؤدي إلى الشعور بالمسؤولية الوطنية سواء من جانب الفرد العادي أو من جانب المثقف السعودي . ولعل مما يحد من التوجهات المغالية في اليمين أو اليسار العمل على نشر الفكر الوسطي وهيئة البيئة الاجتماعية والتعليم والإعلامية له. وتيسر كل الوسائل والسبل لنشره، مع الحرص على الحد من كل قناة شخصية أو إعلامية تخشع أو تخفق فكرياً الاعتدال والوسطية. والشروط الاجتماعية اللازمة لاستمرار الوطنية السعودية كفكر اجتماعي بناء يعكس تحقيق مستوى عالٍ من (التلاقي" أو "التآلف" أو "الترابط" العضوي) بين الرؤى والأفكار والاتجاهات الوطنية المختلفة تحت مظلة الدولة وسيادة الشريعة الإسلامية. وهنا يجب التأكيد على أن شروط الاتساق لا تعني أبداً القضاء على "الفرد" و "الخصوصية"، وإنما تعني القضاء على الحسابات الشخصية الضيقة والتزايدات التعصبية وأنصار المغالاة والتشدد

وكل ما يخرق وحدتنا الوطنية من جهة ومسيرتها الحضارية من جهة أخرى .

وعلى ذلك فإن كانت شروط الاتساق التي نتطلع إليها تهدف إلى إبراز وتدعيم الوجود الوطني في شكل أو قالب عصري جديد، فإن شروط الاستمرار تهدف إلى إمداد هذا الوجود بالحياة والحركة والاستمرارية.

وفي ضوء كل ذلك يمكن النهوض بواجبات المواطنة من خلال بيئة من الحياة المشتركة . ولذلك حذر علماء الاجتماع الإنساني من تآكل المعتقدات المشتركة والأهداف العامة لأنها الوسيلة الأهم في جمع الناس وتضامنهم. وقد عبر "توكفيل" (٢٠٠٣) عن قلقه من طغيان المصالح المادية التي تفرز مجتمعاً متنافراً الأجزاء. وهذا المعنى الذي يعبر عنه "توكفيل" لا يعكس في الحقيقة وجود مجتمع بالمعنى الاجتماعي الفعلي .. بل مجموعة من الأفراد يعيشون معاً (في ايرلي: ٢٠٠٣)، ذلك أن مقاومة المصالح المشتركة والاستغراق في الفردانية تقتل الروح الجماعية والاجتماعية. وهذا المعنى يحكيه حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم (.. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى!) وذلك ما يجسد الروح الجماعية التي نشعر ونستشعر أهمية العيش مع الجماعة. وفي ضوء ذلك يمكن القول: إن شروط الاتساق تعني = ظهور البعد الوطني كوجود قوي في ذاته قادر على احتواء كل مظاهر الاختلافات والتعددية الفكرية، وأما شروط الاستمرار فتعني = تواصل الانتماء لهذا الوجود في ظل التحديات الخارجية والداخلية . وتكون شروط الاستمرار في الآتي:

الشروط الأولى:

إعادة النظر في الخطط الحالية للتنمية الاجتماعية ولاسيما ما يتعلق منها بالاقتصاد والتعليم - وأقصد بإعادة النظر توجيه الاهتمام إلى تحديث المؤسسات الاقتصادية والتعليمية تحديثاً من شأنه أن يواجه بقوة اتجاهات التغريب والعولمة من جهة واتجاهات التفرقة الوطنية من جهة أخرى. وفيما يتعلق بتحديث المؤسسات الاقتصادية فلإن أشير إلى أهمية التداخل بين ما هو اجتماعي وما هو اقتصادي خلال المرحلة القادمة. فلا مجال لإنكار ما قامت به أجهزة الدولة من مجهودات ضخمة -خلال العقود الثلاثة المنصرمة - في إنشاء البنى التحتية . ولكن حان الوقت الآن لكي نهتم بالبنى الفوقية. وأقصد بالبنى الفوقية الاهتمام بصناعة الإنسان السعودي صناعة وطنية قوية ليتكامل مع هذه الجهود الكبيرة في تنمية وطنه . ويؤكد هنا منظرو السياسات

الحكومية " الجدد " أهمية دور ما أسموه بالمؤسسات الوسيطة في خلق التفاعل الاجتماعي مع التوجهات الحكومية مثل الأسرة، والجمعيات التطوعية وشبكات العمل غير الرسمية وأشاروا إلى أن المؤسسات الوسيطة ضرورية لتطوير سياسة اجتماعية ناجحة إذ تفيد ابتداءً في السيطرة على الجريمة وانتهاءً بإصلاح الرفاه الاجتماعي والرعاية الصحية. إلخ (بوت في إبريل ٢٠٠٣) وهنا أرى أن الإنفاق الاقتصادي على مشروعات اجتماعية مثل :

البيئة المحلية - وتنمية المجتمع المحلي - وتحديد الشرائح الاجتماعية التي تحتاج إلى مساعدات فورية وتدريب الشباب السعودي على العمل اليدوي من خلال خلق مؤسسات وسيطة يعد مطلباً وطنياً حضارياً. كل ذلك وغيره من شأنه أن ينمي البعد الفكري الوطني في العقل السعودي. وهذا يعني أن الانتماء الحقيقي للوطن مسألة مشاركة "أخذ وعطاء متبادل". وما فائدة جمال ومثانة المبنى دون تأهيل وإعداد المعنى "الإنسان !!". وتلك قضية لا يمكن أن نقلل من شأنها بأي حال من الأحوال. وفيما يتعلق بتحديث التعليم فإنني أشير إلى أهمية التداخل بين البعد الاجتماعي/الوطني والبعد التعليمي. فالتعليم كما يشير عالم الاجتماع إبريل (٢٠٠٣) هو وسيلة نقل الثقافة. ذلك أنه يثأ أعلى القيم لدى المجتمع وينقل المعارف الضرورية للمشاركة الاجتماعية. كما يتأكد الآن أكثر من ذي قبل تنمية عوامل التجانس الوطني والفكر الوطني والهوية الواحدة في نفوس الطلاب ذلك أن هوية المجتمع ووطنيته تتعرض اليوم إلى حملات مختلفة من قنوات متعددة مما يعزز أهمية العودة إلى دور الأسرة إذ هي المسؤولة عن توجيه الناشئ إلى أي مبدأ عقدي أو فكري أو ثقافي معين أو صده عن ذلك كله (الجوير، ١٤٢٥: ٨) ودور التعليم المهم والتميز والجاد في تماسك المجتمع وتطوره (عبد الكافي، ١٩٩٤: ١١٦).. والهدف النهائي للعملية التعليمية ليس مجرد إعداد الطلاب للمنافسة في عالم التقنية فهو يغذي العادات الفاضلة والصفات الضرورية للتعاون في المجتمع الإنساني. والقصد من ذلك كله أن نسمو بالعملية التعليمية بحيث لا نقيدها بمطلب (الوظيفية) أو (العمل) - كما هي طريقتنا اليوم- ذلك أن تقييد التعليم بالحسابات الاقتصادية الجزئية والشخصية أمر قصير النظر وله انعكاساته السلبية على الوطن والمواطن على المدى البعيد. وهنا فعندما يتم تحديث التعليم بحيث يتسع ليشمل الإسهامات الاجتماعية المختلفة من تغيير الحياة إلى الأفضل وفي تحسين نوعية الحياة، وغرس أدوات التفكير وآلياته بالإضافة إلى ما يترتب على العلم من عمل، فإن ذلك يعني نجاح التعليم السعودي في الحد من مشكلات الوطن، وبالتالي دفع العملية التنموية في

الشرط الثاني:

أساليب تأمين جماعية الفكر الوطني السعودي في مواجهة التحديات الخارجية . وأقصد بهذه الأساليب (الآليات) أو الدعائم التي نضمن بها استمرارية الفكر الوطني الجمعي أو العقل الوطني الجمعي.

ومن أبرز هذه الأساليب ما يلي:

أ- رفض الوصاية الفكرية.

ب- الفصل بين الفكرة الموضوعية والفكرة المتحيزة المضللة.

ج- الانتصار للأفكار لا للأشخاص.

د- تبني تدريس مهارات التفكير في التعليم العام لتربية وتنمية عقلانية التفكير.

هـ- تربية المسؤولية الوطنية ومهارات الاختلاف الاجتماعية والثقافية.

ولعل مما يعزز من إدماج الفرد اجتماعياً وفكرياً التأكيد على أن خدمة المجتمع

من خلال العمل رسمياً كان أو تطوعياً هو جزء من أن يكون المرء مواطناً. ويشير عالم

الاجتماع "كونر" (٢٠٠٣) إلى هذا المعنى بقوله إن على كل شخص يحتاج - ليكون

مواطناً- أن يجيب على السؤال التالي

"ما هي الأدوار التي اخترتها لخدمة مجتمعتك؟" (في إيبرلي: ٢٠٠٣). كل ذلك لتعميق

وتربية المشاعر الوطنية الاجتماعية في نفسه.

الشرط الثالث:

إعادة تقويم بعض المصطلحات والمفاهيم الوطنية. وأقصد بذلك رفض ونبد كل

المصطلحات والمفاهيم البيئية والمحلية التي ترفع من قبيلة على قبيلة أو فرد على فرد

أو مدينة على مدينة. إذ لا يمكن للفكر الوطني السعودي أن يحقق الاستمرار والاستقرار

ما لم يتخلص العقل السعودي من بعض سلبيات التراث الثقافي التي تشير بشكل صريح أو ضمني إلى احتقار

جماعة أو قبيلة أو تمايز جماعة أو قبيلة على غيرها، أو تفضيل

الشمال على الجنوب أو الشرق على الغرب فكل ذلك يصيب الفكر بمقتل ويعزز من البرود في الانتماء

لفكر الوطن. ذلك أن ثقافة التفرقة والاستصغار التي ربما نمارسها بأقوالنا وأفعالنا تجاه مواطنينا وتجاه وافدين

تهدم كل ماهو وطني وتعزز من جهة معنى التفرقة حيث يشعر الفرد بذاته فقط بين أبناء عصبته. ولذلك فطبيعة

الاجتماعية

الممارسة

وإدارتنا للمسؤولية تنعكس على عمق المسؤولية الوطنية التي يمكن أن يحملها الفرد

لوطنه. وهنا يتسق هذا المعنى مع ما يعبر عنه أفلاطون " أعطني أغاني أمة ما ولا

أهمية لمن يكتب قوانينها" (في إيبرلي: ٢٠٠٣). ولعل هذا يرمز في تقديرنا إلى ما

يتناقله الناس ويتحدثون به ويتغنون به.. هل هي أجماد شخصية ، ونعرات قبلية،

واستنقاص متبادل بين مكونات المجتمع.. أم مثل عليا من تمجيد العطاء والحرية والعمل

البناء ووحدة الكلمة وجماعيتها!!، والتي بدورها تنعكس حتماً على واقعهم وأمنهم الاجتماعي مهما كان القانون والنظام الذي يحكمهم.

وإلى هنا نصل إلى مدارس مهمة للفكر بين رشده وتيهانه في الفصل الرابع..، وكيف نتفهم الأسباب التي تشد الفكر إلى التطرف والغلو وما هي السمات التي تجلي لنا وبوضوح ملامح الفكر الراشد من التائه...، إلى غير ذلك مما يثري الوعي بهذه المفاهيم وانعكاساتها الاجتماعية.

الفصل الرابع

بين الرشاد والتيه الفكري

من الأهمية. بمكان الحديث عن الفكر وأسس قوامته ورشده وسمات ذلك وضوابطه ، ذلك أن الفكر هو ذلك الجزء من الإنسان الذي يقود ويدير مختلف أجزائه حساً ومعنى.

وظاهرة الإفراط والتفريط في النظر إلى الأشياء موجودة في كل نحلة وديانة ، فاليهودية والنصرانية أفرزتا عدداً من الفرق يناقض بعضها بعضاً. وحركة البروتستانت في النصرانية على سبيل المثال هي خروج عن التزامات الكاثوليكية فيما يعتقدونه من الأصول وبين هذه وتلك فرق يصعب حصرها.

وهذا التشتت في أتباع الأديان السماوية لم يخل منه دين الإسلام حيث شهدت حقبة صدر الإسلام وإلى اليوم توجهات وطرق وفرق تغلو في شيء وتفرط في آخر. وينقل أبو حامد الغزالي في حق من أفرط وفرط في حق الصحابة قوله " واعلم أن للناس في الصحابة والخلفاء إسرافاً في أطراف ، فمن مبالغ في الثناء حتى يدعى العصمة للأئمة ، ومنهم متهم على الطعن، يطلق اللسان بدم الصحابة فلا تكونن من الفريقين واسلك طريق الاقتصاد في الاعتقاد .." (في عمارة ٢٠٠٤ : ١٢).

وسوف نناقش في هذا الفصل الأسس التي يجب أن تتوافر في الفكر الذي ندعو إليه ونرتضيه ثم ما هي السمات التي يتسم بها هذا الفكر؟، ونعرج على أهم المآخذ التي تتزلق فيها العقول لتشدّها يمنة أو يسرة عن الفكر القويم..

المبحث الأول :. الفكر الرشيد

الفكر الرشيد هو الذي يؤسس للأمن بمختلف مجالاته ، والأمن من جهة أخرى يعمل على خلق فكر رشيد. وإذا كان التفكير وهو المنتج العقلي مطلب إنساني بل وضرورة شرعية، فإن الفكر القويم هو المعنى الذي يجب أن نتدارسه ونبحث عنه ونحدد سماته وضوابطه من أجل أن يكون واضحاً وبنياً ليسير على هداة كل من هواه. والأساس الذي لا يمكن للفكر أن يستقيم من دونه هو كتاب الله وسنة مصطفاه (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) " تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي ".

وهنا دعوة قبل أن نخوض في بحث ملامح الفكر الرشيد وهي أننا اليوم أحوج مانكون اليوم إلى إحياء الدعوة بأهمية التفكير وطرقه ومهاراته وكلها علوم نحتاج إلى مدارستها وتربيتها لأجيالنا الناشئة.

وهنا يؤكد بكار (٢٠٠٢: ١٨) بأن " تنقية التفكير لدينا من أكبر قدر ممكن من العادات الفكرية السيئة يجب أن تسبق تزويد عقولنا بطرق التفكير والمبادئ الثقافية الصحيحة (التخلية قبل التحلية). وعلينا أن نمارس نقد تفكيرنا الذاتي وتبسيط الأضواء على طبيعة عمل العقل والالتباسات التي يقع فيها" .. والمسلمة التي تؤمن بها هي أنه لا يمكن أن يستقيم مسار حياتنا دون أن يكون خلفه فكر راشد يعتز بقيمه الإسلامية ويعمل بها.

ويعرض عدد من المفكرين (الزنبيدي ١٤٢٢ ، ٢٤-٥ ، صوفي ، الصاوي ، سلطان ، العلواني ، البشري ٢٠٠٥ ، العبيدان ٢٠٠٧ ، الفرفور ، ٢٠٠٢ ، الفيومي ٢٠٠١) إلى أن أهم مقومين للفكر الرشيد هما:

أولاً: البناء على الأصل العقدي الإسلامي الصحيح.

ثانياً: التمسك بالضوابط الشرعية.

والبناء العقدي المرتكز على الإيمان بالله والاستقامة على شرعه هو الضامن الأوحد للطمأنينة الفكرية والنفسية والاجتماعية، والانضباط بالثوابت الشرعية هو الصمام الأهم للحماية من القلق والحيرة والاضطراب والتهيان. " ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله رب العالمين". ويورد الزيندي (١٤٢٢) أهم خصائص الفكر الإسلامي في الآتي: (نقلها بتصرف ونضيف إليها بالأخص ثامناً وتاسعاً وعاشراً):

أولاً: الربانية:.

رباني المصدر والغاية فهو من الله وإليه سبحانه ويقود البشرية نحو الله ويوجه حركة الكون إلى خالقة ويحيل كل الأهداف ومسائلها لتحقيق هذه الغاية العظمى.

ثانياً: الشمولية:.

وهنا لم يحجر الإسلام فكر الإنسان بل دعاة إلى السباحة في عالم الكون ، فلم يحدد له موضوعاً يحصره فيه ولم يوقفه عند مصدر وحيد في المعرفة بل إن الحكمة هي ضالته. كما أجاز له أن يستخدم مختلف المناهج المشروعة للوصول إلى الحقيقة.

ثالثاً: الوضوح:

والوضوح كخاصية للفكر هنا يعني أن لا مجال للغموض في مسيرته أو تطلعاته ولا أسرار في دين الله ذلك أن الإسلام للناس جميعاً، العالم والأُمِّي في أي مكان كان وعلى أي مستوى كان. والوضوح يعني أيضاً أن أي خرق أو اختراق لثوابته العقدية والعملية يستنكره كل مسلم صغير أو كبير. (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك).

رابعاً: التميز:.

والتميز هنا أنه أي الفكر الإسلامي الرشيد لا يمكن أن يتأثر بمؤثرات داخلية أو خارجية ولا يمكن أن تؤثر على شخصيته، فأساس هذا التميز وحدانية الخالق ومصدرية الوحي وتلك ميزة لا يغيرها الزمان ولا المكان.

خامساً: الانتماء اللغوي للعربية:.

الانتماء للعربية ليس تحيزاً ضد غيرها، ولكن المقصد هنا هو أن تشريف الخالق للعربية بإنزال القرآن على لسانها وبلغ بها نبيه صلى الله عليه وسلم تؤكد بأن نعي مصطلحات اللغة ودلالاتها في العقيدة والشرعية، والفهم لدلولاتها واشتقاقاتها حتى يستوعب الإنسان مراد الله في خطابه حسب طاقته. ومن المعلوم أن خلافاً أصاب الفكر بعد اختلاطه بالعجمة.

سادساً: الموضوعية:.

والموضوعية تعني التحرر من الغرائز والأحاسيس والانفعالات الذاتية والتزُّه من الأهواء والمصالح الشخصية التي تحول دون الوصول إلى الحقيقة .
(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا) وهذه دعوة إلى التجرد والوضوح والمسؤولية

سابعاً : الاعتدال والاتزان :

وهنا يتميز الفكر الراشد بعدم غلبة جانب على آخر فيعطي كل ذي حق حقه ويقدر كل شيء حق قدره. إذ يعيش عصره بأوضاعه المستجدة فيقومها بميزان الإسلام الحق ويوجّه أهواء هذا العصر حتى لا تفسد الحياة.

ثامناً : الاعتماد على الدليل والبرهان :

الفكر الراشد يعشق الدليل ويعتمد إلى البرهان، لا يشده الهوى ولا الإعجاب ولا التهويل وإنما حاديه (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) والقبول أو الرفض لا تؤثر فيه متغيرات الزمان أو المكان أو العواطف، بقدر ما يحتاج إلى برهان عقلي أو سلطان نقلي ... وهكذا يزن الراشدون قضاياهم ومسائلهم . ودليل الصدق لدى المفكر الراشد الإتيان بالبرهان (ايتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين).
وبالاعتماد على الدليل والبرهان ضمان لصحة الفكر ومسيرته وتساقط لكل الخرافات والضلالات الفكرية التي لاحظ لها من أثر أو نظر .

تاسعاً : يقدر المحكم ويتجاوب مع المتغير :

من سمات الفكر الراشد أنه لا يناقش المسلمات في الوقت الذي يمعن النظر في المتغيرات، ويفرق بين مواضع الإجمال والنصوص القاطعة وبين موارد الاجتهاد التي يحتمل فيها الفهم وجوها متعددة ، وكل ما لم يرقم عليه دليل قاطع من نص صحيح أو إجماع صريح . كما "يأبى أن يجعل شيئاً من الاجتهادات الفرعية أساساً للولاء أو البراء مهما بلغت درجة اقتناع صاحبة به واقتناعه بخطأ المخالف فيه".
ولو شاء الله أن يتزل القرآن على نحو لا يحتمل إلا وجهاً واحداً أو أن تكون سنة نبيه على نحو لا تحتمل إلا وجهاً واحداً ما أعجزه ذلك ، ولكنه سبحانه أراد ذلك ليكون توسعة على العباد وحافزاً للتدبر والتفكير. و
يورد الصاوي رواية جميلة وهي أن رجلاً صنف كتاباً في الاختلاف فعرضه على أحمد بن حنبل فقال له الإمام أحمد لا تسمه (كتاب الاختلاف) ولكن سمه (كتاب السعة). وشاع على السنة العلماء : إجماعهم حجة قاطعة واختلافهم رحمة واسعة (في الصاوي: بلا تاريخ).. وهذه رسالة إلى من تضيق نفسه في سعة حكم الله ورسوله إلى أن هذا هو منهاج سلفنا الصالح الرشيد.

عاشراً : التجديد والإبداع :

من سمات الفكر الرشيد أنه يؤمن بحاجة البشرية إلى التجديد في الوسائل والطرائق والأساليب لإيصال رسالة الإسلام إلى العالمين . والتجديد المطلوب والمرغوب هو استجابة لسنة الله القائمة " وأن الله يبعث على رأس كل سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها" وصاحب الفكر الرشيد هو ذلك الشخص الذي يجتهد ما استطاع في بعث وإحياء ما اندرس من دين الله وتجديد عرضه واستخدام مختلف الوسائل المباحة لتقريب فهمه والعمل له . والإبداع في تطوير مختلف التقنيات الحديثة لتسهيل إيصال وسائل الهداية والإصلاح للناس في مختلف بقاع الأرض .

هذه جماع ما أمكن الوقوف عليه وإضافته في خصائص الفكر الرشيد والتي عادة ما يتصف بها أصحاب الفكر والتجديد. وكلها في الحقيقة أدوات أمن وتأمين كلما اتصف بها وترى عليها أبناء المجتمع .

المبحث الثاني : التيه الفكري

التائهون فكرياً هم عادةً من يخلون بالأمن . والتيه هنا يشمل أولئك الغالين في فكرهم شدة وتطرفاً وأولئك الجافين أو المحاذين لشرعهم وثوابت دينهم. ولا أدري كيف يفهم أو يمكن أن يستوعب هؤلاء هذين المثالين - وغيرهما كثير - : الأول عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كان رجلان في بني إسرائيل متواخين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصر ، فقال خلّني وربي ، أبعثت عليّ رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ، أو : لا يدخلك الله الجنة ، فقبض الله أرواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بي عالماً ، أو كنت على ما في يدي قادراً ، وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر اذهبوا به إلى النار) . أخرجه أحمد في المسند والبيهقي في الشعب وهو حسن الإسناد (في السليمان ٢٠٠٥).

والوجه الآخر للذين أورد الله عنهم في كتابه العزيز بقوله " قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون ، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم .. (الآية .

ففي الصورة الأولى مشهد لمن يأخذ بالذنب ويتجرأ على رحمة الله وكأنه يملكها وفي المشهد الآخر صورة لمن يتجرأ على الاستهزاء بأصحاب رسول الله فيسخر منهم... ويحكي المشهدان معاني كثيرة للغلو من قبل الطرفين وعدم الأدب في حسن الخلق والتخلق مع الله .

... ومعلوم بأن شرارة الغلو بدأت منذ عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم بل ولم تنته منذ أن نفث سُمّها ذو الخويرة حين قال (اعدل يا محمد فإنك لم تعدل) يعترض على حكم الله ورسوله !! .

وبعد هذه المقدمة نعرض إلى شيء من مسببات القصور العقلي والتصلب أو التعتت الفكري ثم نعرض إلى عدد من الأسباب التي أدت إلى ظهور ظاهرة الغلو وما صاحبها من مشكلات أمنية راح ضحيتها أنفس أمينة وبريئة ...

يذكر الباحث المفكر بكار (٢٠٠٢) عدداً من سمات القصور العقلي والتي تنسحب في مجملها على سمات الشخصية الغالية أو المتطرفة نجمل مذكره الباحث بتصرف في الآتي :

يبدأ الباحث عرضه بتساؤل (لماذا نخطئ؟) ثم يعرض إلى أن هناك مسلمة يجب الإيمان بها وهي أن العقل البشري يشوبه نواقص وتزداد هذه العوارض أو تقل حسب البيئة التي يعيشها الإنسان .

ومما ذكره في هذا السياق الآتي :

١- العجز عن التفصيل :

وهذا يعني أن الإنسان عادة ما يلجأ إلى تقليل ما يبذله ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ولتوفير الجهد العقلي نحاول عادة التخلص من التفاصيل وذلك لحل في التربية الفكرية .

٢- الفكر يشوّه الواقع :

يصعب إلى درجة كبيرة إدراك الواقع وحقيقته وحين يريد الإنسان تصوير الواقع ، إنما يلتقط صوراً محددة من ذلك الواقع وهي بالتحديد تلك الصور التي تتغذى أو تستجيب لخيالاته ومعتقداته التي يمتلكها مسبقاً عن هذا الواقع وبالتالي هو يصور الواقع كما يشتهيهِ ... ومن هنا يحكم عليه!!.

٣- الصواب الوحيد :

دائماً ما يركز الأفراد الأقل ثقافة على العوامل الوحيدة حيث تسمع منهم بأن العامل الوحيد أو السبب الوحيد أو التفسير الوحيد ... وهكذا ، وهذا يعكس جذباً ثقافياً وضحالة فكرية تحرم الإنسان من الاستفادة من غيره ، بل قد يسبب رفضاً لما يغيّره حتى ولو كان من جهة متخصصة وهذا السمة تربي في الإنسان ما يمكن تسميته (بالكسل الذهني).

٤- ضعف حساسية العقل نحو النسبية:

من الأهمية بمكان أن نأخذ بالحسبان نسبة الأشياء ومقاديرها إذا أردنا أن نحكم على شيء أو نحكمه . وهذا يعني أن نقوم مثلاً بإنجازات الآخرين وأخطائهم لا على نحو مطلق ولكن في إطار ظروفهم وإمكاناتهم، (سبق درهم مئة ألف درهم) وهذا يمكننا من أن نرى ما يربطنا بمن يخالفنا الرأي، عوضاً عن أن نرى ما يبعدنا عنه.

٥ - الفكر المتصلب :

وتتسم شخصية صاحب الفكر المتصلب بكونه غير قادر على التخلي عن آراءه حتى لو بدا له خطأها ، كما أن لغة المتصلب فكرياً تميل إلى المغالاة والقطيعة. ويفتقر إلى الإحساس بمشاعر الآخرين ، وتراه عادة مرتبك ومتناقض. ويرى العودة (١٤٢٥) بأننا بحاجة إلى توعية الجمهور بشأن المنهج الصحيح في التعامل مع الخلاف. لأن الحق قد يتوزع بين العلماء(ص١٨٦).

٦ - الفرار من مواجهة الحقيقة :

والحقيقة تبدو كالعدو يفرّ منها ولا يستطيع مواجهتها.

٧ - التفكير السلبي :

وهنا تتضح قدرة العقل على اكتشاف السلبيات أكثر من قدرته على اكتشاف الإيجابيات والتفكير السلبي يبلور علاقة صاحبه بالواقع وفق الأفكار السلبية التي يحملها.

٨ - تفكير المسار الواحد :

علاقة الإنسان بغيره ومن حوله علاقة تفاعلية يؤثر ويتأثر يأخذ ويعطي. ولكن أصحاب تفكير المسار الواحد لا يرون إلا الآلام والحن، ومع الابتلاء يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن نرى وجهها آخر في قوله " لا تسبوا الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد".

٩ - شدة التمسك بالقديم :

حين يغيب المنهج تستمد الأفكار والمفاهيم والطروحات والحلول قيمتها من زمنيته أكثر مما تستمدّها من صوابها وعلميتها ونجاحها. و في قوله تعالى (.. إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) دليل على أن القول لا يستمد قيمته من الزمان أو الأشخاص وإنما بمدى قربيه من الحق وقدرته على الصمود في وجه الواقع العملي.

١٠ - الوثوقية الزائدة :

والمصابون بداء الوثوقية الزائدة يغمضون أعينهم عن المعطيات الظاهرة ويضخمون الأشياء الاستثنائية في سبيل إضفاء يقين مصطنع على أفكارهم الذاتية.

١١ - الانتقائية في التفكير :

والواجب الشرعي والأخلاقي والحضاري أن نحاول أولاً إدراك الصورة على ما هي عليه ، ثم التعبير عنها على نحو منصف ، وإلا كانت أعمالنا الفكرية تشويهها للواقع وللتاريخ ولعقول الناس أيضاً.

١٢ - التهويل :

وهذه السمة الفكرية تشكل منتجاً من منتجات طغيان العاطفة على العقل ، فالإفراط في وصف الأشياء مدحاً أو ذماً هو من العلل المستحكمة في عقلياتنا. ولن يستقيم الفكر ما لم يفصل بين مناطق التماس العقل بالعاطفة.

١٣ - صفر أو مئة

الأحكام العقلية المعتدلة تستطيع أن تستخلص الصواب القليل من ركام الخطأ الكثير، كما تستطيع أن تستبعد الخطأ القليل المغمور من صواب غزير، وهذا هو منهج العدل الذي قرره الإسلام. (العودة ١٤٢٥).

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا.

وأورد بقية الأوصاف لمقومات الفكر الرشيد عدداً حيث إن مقاصد معانيها قد اتضحت :

١٤ - الاغترار بالإمكانات الشخصية.

١٥ - التفكير التبريري.

١٦ - التعميم.

١٧ - بساطة التفكير.

١٨ - الاهتمام بالاستثنائي والشذوذات الفكرية.

١٩ - التفكير العجول.

٢٠ - رؤية الأشياء من وجهة نظر شخصية.

والمعنى هنا أن ما يستحسنه يأنس بوجهات النظر التي تؤيده بمقدار ما يستوحش من مخالفه بل ولا يطلع إلا على كل ما يدعم وجهة نظره وينظر إلى من يخالفه نظرة ارتياب وشك.

هذه عشرون خاصية لمشكلات فكرية،.. ونختتم هنا بأن كل ما تم عرضه هو استخلاص لمجمل المعوقات الفكرية التي نمارسها أحياناً ويتصف بها إجمالاً التائهون عن الفكر الرشيد، والمسببون أو المتسببون في الإخلال بالأمن وخلخلة الوحدة الوطنية.

المبحث الثالث :

أسباب الغلو والتطرف وسمات أفرادهم

يشير عدد من الباحثين تساؤلات مهمة ودقيقة حول مسببات الغلو والتطرف خصوصاً في وقتنا الحاضر، ولكنهم يؤكدون على أن هذه الظاهرة ليست حكراً على مجتمع دون آخر ولا على ديانة دون أخرى فهي ظاهرة إنسانية لا ترتبط بدين أو عرق أو جماعة أو مجتمع (عمارة ٢٠٠٤ ، الحبيب ١٤٢٧ ، البشري ٢٠٠٥ ، الهرفي ١٤٢٥).

ويُجمل البشري (٢٠٠٥) القول هنا في تفسير الظاهرة بقوله بأن " الغلو في التغريب ولّد هذا الغلو الديني " (ص ٤٤). ويؤكد بأنه في إطار هذا الوعاء العام للسببية يمكن أن نضيف الأسباب الأخرى المكملّة،.. ويبدو أن الغلو سيبقى بدرجات شتى وأشكال متنوعة وعلى فترات ممتدة أو منقطعة ، ما بقيت هيمنة التغريب ولن يضعف إلا بضعفها.

... وفي حديثه عن إمكانات الاعتدال والتطرف يشير البشري (٢٠٠٥ : ٣٥) بأن تيار الغلو ليس لصيقاً بالفكرة الإسلامية مع أن البعض يُشيع بأن الإسلامية السياسية تنتج عنفاً بطبيعتها ، وهذا غير صحيح ،

خاصة من الناحية العلمية المنهجية. إن كل تيار فكري سياسي فيه إمكانات اعتدال وإمكانات تطرف ... وإن أياً من جناحي العنف والتطرف داخل أي تيار ، يتوهج أو يخفت حسب الظروف السياسية والمثيرات الاجتماعية ، وحسب مقدار ما يكفل المجتمع لهذا التيار في عمومته من إمكانات التعبير المشروع لنفسه ... لكن عدداً من المثقفين يؤثرون ألا يروا الفروق بين معتدل ومتطرف فيلصقوا ظاهرة التطرف بالجميع ... وهذا يفضي إلى مشكلات، وعليه يتعين علينا أن نبحث المثيرات بدقة ووعي وعلمية وهدوء إذا كنا حريصين فعلاً على إشاعة الاستقرار في المجتمع.

ويعرض السليمان (٢٠٠٥ : ٣٢) إلى أسباب ظهور الغلو فيذكر منها:

أولاً : عدم الفقه في الدين وضعف العلم الشرعي والجهل بالسنة وهذا من أهم الأسباب التي تؤدي إلى ظاهرة الغلو ، ومع العلم القليل وكثرة الأتباع وحادثة السن يأتي التعامل والتعالي على العلماء فيعزز من التمسك بالغلو والجهل المخالف للسنة.

ثانياً : التشدد والتنطع في الدين : وتلك سمة ظاهرة على هؤلاء منبعها الجهل بالسنة وسماحة الإسلام (ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه).

ثالثاً : الابتعاد عن العلماء وترك التلقي عنهم والافتداء بهم :

ويغذي هذا التوجه أصوات تشوّه صورة العلماء خصوصاً من هم في العمل الحكومي بأنهم لا ينصحون ولا ينكرون.

ويشير الخليفة في دراسته عن " الخصائص الأسرية للمطلوبين أمنياً وعلاقتها بالإرهاب والتطرف في المجتمع السعودي " بأن غالبية المسجونين لم يلتحقوا في دروس كبار العلماء أو الدروس العلمية التي تلقى في المساجد إلا اثنين فقط من المسجونين قد التحقوا بهذه الدروس. كما تبين الدراسة بأن المسجونين لم يلتحقوا بحلق تحفيظ القرآن ، وأن أربعة منهم فقط هم ممن انخرط فيها لفترة.

رابعاً : حادثة السن وقلة التجارب : والناظر عبر التاريخ يلحظ بأن غالبية الفتن يحملها أحداث الأسنان وقليل التجارب. وهنا يؤكد الخليفة (١٤٢٦هـ) أيضاً في دراسته بأن مجمل بيانات المطلوبين أمنياً هم من حملة الثانوية مما يعني بشكل واضح بأن غالبية المسجونين هم من الشريحة العمرية الواقعة في سن المراهقة خاصة في بداية مشوارهم الجهادي في أفغانستان. وحادثة السن أقرب إلى أن يصاحبها شيء من الطيش والتسرّع وعدم الروية وسفاهة الحلم.

خامساً : النعمة على الواقع :

أشرت سابقاً بأن من مسببات الخلل الفكري التهويل، ورؤية الأشياء من وجهة نظر شخصية وفي إطار سلبي، وكل هذه المعطيات تجعل الشخصية ناقمة على الواقع الذي تعيشه وبالتالي قد تتجه إلى مواجهة هذا الواقع. ويؤكد الحبيب (١٤٢٧هـ) بأن ما تعتقده الشخصية المتطرفة صحيحاً يصعب التنازل عنه في الوقت الذي يستخدم المتطرف غضبه من أخطاء في مؤسسات المجتمع مبرراً لتوجهه المتشدد.

ومن العوامل التي يمكن أن تضاف لتكون سبباً في اتجاه الغلو :

- أ - بعض الكتب التراثية التي تحمل فتاوى فيها شدة وقوة تجاه الواقع.
 - ب - كتب قادة التنظيمات المتشددة وفتاواهم المبنية في شبكات الانترنت. وحسب ما أفاد به بعضهم على شاشات التلفاز بأن كتاب "الكواشف الجلية" للمقدسي كان أحد العوامل التي أثرت على أفكارهم.
 - ج - تعدد القنوات الهابطة التي تثير مشاعر المسلمين.
 - د - ضغوطات الدول الغربية واختراقها للدول العربية والإسلامية وخصوصاً قضية فلسطين.
- وأشير في خاتمة هذا الفصل إلى ما ذكره عمارة (٢٠٠٤) بأنه إذا لم يتعامل العقل الإسلامي الفقهي.. والفكري.. والإعلامي مع هذه الظاهرة وأصحابها بمنهج علمي وموضوعي فإنها ستظل حاضرة في واقعنا الفكري والعملي تدور بين صعود وهبوط. كما أننا يجب أن ندرك أننا أمام جماعات لا تتجاوز أبصارها ظواهر النصوص وقد تربت على إساءة الظن بالنظر العقلي، ولذلك فإن الحوار معها يجب أن يهتم بالنصوص.. والوعي بمقاصد ومرامي وفقه هذه النصوص (ص ٣٠).
- ومن الجميل هنا أن نستحضر محاوره ابن عباس لآلاف الخوارج إذ أتاهم من حيث يرغبون ويظنون أنهم يفقهون فعالج ذلك بالحوار فأخرج أغلبهم من دائرة الغلو والتشدد إلى دائرة السنة والسعة. (يمكن الاطلاع على المحاور في الملحق).

الفصل الخامس

خاتمة الدراسة

الوسطية والمستخلصات العلمية والعملية

من مدخل الدراسة إلى منتهاها بدءاً بالأمن ومروراً بالفكر وانتهاءً بالوطنية نحتاج إلى الوسطية...، فالفكر قد يكون كفوفاً والأمن قد يكون عقدة أو فوضى والوطنية يريد بها البعض أن تكون بديلاً عن الرابطة الدينية ومنهم من لا يريد لها أصلاً لطغيان مفهوم الأمية... وهكذا.. وكل هذا وذلك خلاف الوسطية. وحينما نؤكد على الوسطية إنما نعني بها دوماً الأفضلية. فالوسط ليس دائماً محموداً وإنما محمود "الأفضل" بين الأشياء. وذلك مدلول قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً..) وقوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً).

... ويتحدث أبو حامد الغزالي في كلام بديع عن الوسطية الجامعة، مصوراً تصويراً نموذجياً منهاج الوسطية الإسلامية الجامعة الراض لعلوى الإفراط والتفريط والجامع لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة والأطراف المتناقضة مانصه " إن أهل السنة قد اطلعوا على طريق الجمع بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن من "الحشوية" وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر ، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع، وما أتوا به إلا من خبث الضمائر ، فميل أولئك إلى التفريط ، وميل هؤلاء إلى الإفراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط ، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم .

وأني يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر ، وينكر مناهج البحث والنظر ؟ أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر صلى الله عليه وسلم، برهان العقل هو الذي عرف به صدقه في الخبر ؟.

وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر ، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر ؟ هيهات ، لقد خاب على القطع والبتات وتعثر بأذيال الضلالات ، ولم يجمع بتأليف الشرع والعقل ، هذا الشتات ". (في عمارة: ٨: ٢٠٠٤).

ومن التأسيس للوسطية إلى المعالجة الفكرية التي تركز على فكر التفاؤل الدائم المبني على الثقة الذي يمكن من الوصول والحصول على كل ما فيه خير للبلاد والعباد. والفكر البناء الراشد الذي "يقتبس نوره من مشكاة فيها مصباح" يتمثل في الآتي:

أولاً : أنه ينطلق من الحق :

والحق هو المعيار الذي قامت عليه السموات والأرض (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وفي هذا الجو المشيع بالحق يربي الإسلام النفس البشرية فيعمق في شعورها الإحساس بالحق حتى يصبح هو العقيدة ويصبح هو الحياة. ولا يمكن أن يحدث في ملكوت الله شيء اعتباطاً أو باطلاً (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلاً).

ثانياً : وبعد انطلاقه من الحق : أن الفكر الذي نريده يستهدف الحق، و المسلم مأمور بأن يطلب الحق ويتطلع إليه وأن يبحث عنه (فالحق ضالة المؤمن).

... إن من مشكلاتنا أننا أحياناً نسلّم عقولنا لغيرنا ليعثوا عنا وفي ذلك تربية للعقول على الخمول وتحجير عليها وهذا سبب لخلل فكري يدعو إلى خلل في الأمن حينما لا نربي الناس على آليات الفحص والتمحيص للأفكار.

واستهداف الحق يعني أنه لا يؤثر في أحذه ممن خرجت تلك الكلمة فالحق لا يقاس بقائله إنما يقاس قائله به (قس الرجال بالحق ولا تقس الحق بالرجال).

ثالثاً : بعد الانطلاق والاستهداف تأتي الثمرة العملية وهي " تبني الحق " :

وعلى ذلك فالفكر الذي نقصده وندعو إلى تبنيه أنه لا يكفي بالمعرفة النظرية ، ولا يقف عندها بل يتبنى هذا الحق دون مراوغة ، أو انتقائية أو هوى في النفس بل يسعى لتجسيده وتربيته والدعوة إليه ، والذب عنه وجذب الناس إليه.

ومما يُشكل في تأسيس هذه المعاني الثلاثة (استهداف الحق ، والانطلاق منه ، وتبنيّه) الطريقة التربوية التي نعيشها ونمارسها ، فقد نقف عند الأشخاص ولا نتعدهم ، وقد نقف عند البيئة ولا نتجاوزها ، وقد نقف عند الظن ولا نتمحّصه... وإلى ذلك يدعو أئمة الإسلام إلى تربية الحق في ذواتنا.. يقول الإمام مالك (إنما أنا بشر أخطئ وأصيب – وتأمل أنه قدم الخطأ- فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة خذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه). رحمك الله يا "مالك"!

...إن كل ما ذكر من حقائق ومظاهر وتحليلات لا تهدف فقط إلى خلق اتران في شخصياتنا الوطنية، وإنما يجب أن ننظر أيضا وبدرجة عالية من الأهمية إلى انعكاساتها الخارجية والعالمية. فنحن وطن هو مهبط الوحي ومأوى أفئدة المسلمين، بل والعالمين بما حباه الله من خيرات وثروات،.. أولاً تستحق هذه منا أن نكون

أوفياء لهذه الرسالة وهذه النعم. إن صورتنا في الخارج ليست بأقل أهمية من الداخل،.. وكلاً من هذا وذاك بحاجة إلى الوقوف ملياً لنكون أكثر حرصاً وفعلاً وحيوية فكراً وسلوكاً.

المستخلص العلمي والعملية:

وإلى هنا نستخلص عدداً من التوصيات العلمية والعملية التي يمكن أن تلعب دوراً فاعلاً في تعزيز الأمن الفكري ووحدة الوطنية .. نجملها في عدد من الأفكار العلمية والتوصيات العملية.

المستخلص العلمي:-

أولاً: إن مما يمكن استخلاصه من جملة ما ذكرناه عن أسباب الخلل الفكري يصعب حصرها، لكن جوانب فردية واجتماعية ومؤسسية يمكن أن تسهم في ذلك..، فالجمود مثلاً وعدم تقدير الذات والإحباط والتحجر وعدم التطلع وغير ذلك عوامل شخصية تلعب دورها في نقاء الفكر وفساده، في الوقت الذي تعمق عوامل اجتماعية من الخمول الفكري كالعفلة التربوية والتسلطية والتقليدية،.. وفي الجانب المؤسسي تندر المنظمات الثقافية مثلاً وإن وجدت فترتكز على النخبوية في غفلة عن الهموم الشبابية وقضايا الأمن الفكرية.

ثانياً: إن عدم القدرة على إعطاء معنى "للانتماء" وعدم وجود إطار قيم ينتظم من خلاله المجتمع يفرز حالة من التشتت والتفكك المرضي. وفقدان القواعد المشتركة لعيش حياة مشتركة تنتج مجتمعاً محلياً تائهاً تناكل فيه الثقة وتزد فيه فيروسات أهواء الفردية والاستبدادية والانعزالية... وذلك ما يقوض معنى "الوطنية ويثير المشكلات الأمنية والفكرية .. بل إن النتيجة المتوقعة كما يراها قراء الاجتماع الإنساني لهذا الواقع المتردي هي انشغال الناس وخصوصاً شبابهم بالسعي اليائس بحثاً عن معنى للانتماء تنتهي بهم - أحياناً - للخضوع إلى أشكال من العصبية والتطرفات الموغلة في الغرابة... وبين هذا وذاك تضع " لغة المصلحة الوطنية."

ثالثاً: أننا ونحن نعيش هذه المرحلة التاريخية تحديداً نحتاج إلى وعي بقيمتنا وذواتنا وما يدور حولنا لأن ذلك كله ينعكس على فكرنا ودورنا ومستقبلنا المبني - شرطاً - على اتساق داخلي أكبر على مختلف المستويات لكي نعمل جميعاً وفق أهدافنا وأولوياتنا، وبالتالي يمكن أن نتعالى سوياً على التحديات خارجية كانت أو داخلية . ولن يكون ذلك متاحاً إلا بالشعور بالساحة المشتركة لمكونات المجتمع كله. والمعنى هنا أن نتأكد بأن ما نقوم به على مستويات مسؤولياتنا يتسق ويخدم المعاني والأدوار التي نتطلع لها سويًا وعلى رأسها تحميل المسؤولية أهلها (جانب الأمانة) وتهيئة البيئة العلمية/العملية (جانب الأداء).

رابعاً: نود القول بأن أي جهد من مجتمعنا على أي مستوى كان إذا لم يعط من الصلاحيات والإمكانات ويهيأ له من القدرات ما يمكنه من أداء دوره وبتميز فإن ذلك/وفي ذلك مدخل لغيرنا علينا بأننا قوم لا نحسن القيادة ولا الريادة وبالتالي فغيرنا أحق بها منا!

خامساً: العصر الذي نعيشه يؤكد أهمية تبني برامج ومراكز ومواد ومشروعات عملية وعلمية وفكرية تنمي في حس الناشئة الطمأنينة الفكرية ومعنى الوطنية والمشاركة الشعبية والشخصية الحضارية الفاعلة التي ينتمي إليها. وتقليل المظاهر والظواهر المشتركة بين الناس يعني بأن هناك دفعاً محموماً لهم نحو الوحدة المنعزلة. ولذا قد يجني المجتمع بمختلف مؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية على نبض حياته .. حينما يُغفل تكوين قنوات نابضة بالتكاتف والتضامن الاجتماعي بين أفراد .. لأن عدم وجود بيئة مشتركة يتداول الناس فيها ما يعمق معنى الجماعية بينهم يعني قصرهم ودفعهم إلى الفردية والانعزالية .. ومن هنا فدفع الجميع للإحساس بالضمير المشترك القائم على القيم المتبادلة في العدل والمشاركة وتكافؤ الفرص .. كل ذلك يعمق من دفع ودفق الدم إلى مكونات المجتمع بأسره لتنبض بالحياة .. ومن هنا كان على الرجال والنساء ذوي المبادئ أن يتحركوا في كل جانب وعلى كل صعيد لبث الروح الجماعية وبناء الهم الاجتماعي لدى/بين الناس واستعادة الاستقامة المفقودة في عطاء وأدوار الأنظمة والمؤسسات التربوية والنظامية والخدمية لتؤدي دورها بتزاهة وبروح وطنية حضارية لا "مصلحة ضيقة فردية."

سادساً: مجتمع غني بالمواطنة يعني أنه قوي في تضامنه يتعهد فيه الناس برعاية مؤسساتهم وأفكارهم وقيمهم وأخلاقهم التي يقوم عليها مجتمعهم. ومن المهم أن نعلم بأننا حينما نكسل أو نتباطأ في تفعيل والتفاعل مع قيمنا التربوية فإنما نخلق صراعا بين أجيالنا وخطا بين متطلبات "الوطنية" واحتياجات "العالمية" فتضيع أو تضيع الأولى من أجل اللحاق بالأخرى.

المستخلص العملي:-

لا يمكن استثناء أي مؤسسة رسمية كانت أو غير رسمية من تعميق وتربية معنى السلامة الفكرية والوحدة الوطنية .. لكن أدوار هذه المؤسسات تختلف من حيث الوظيفة والأهمية التي تؤديها نظراً لطبيعة المسؤولية التي تمارسها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن ممارسة المواطنة مثلاً وتنميتها لا يمكن أن يكتب لها الدوام والاستمرار ما لم يكن هناك تكامل وتنسيق بين جهات المجتمع المختلفة .. بحيث إن القيم المطروحة -على سبيل المثال - في المناهج التعليمية يجب أن تدعمها القيم المطروحة في الإعلام كما أن

الممارسات الوطنية المطلوبة على المستوى الاجتماعي تحتاج إلى قنوات لتفعيل معناها من خلال وزارة الشؤون الاجتماعية والرئاسة العامة لرعاية الشباب والشؤون البلدية

والقروية .. وهكذا .. كل ذلك من أجل أن تسير العملية والمسؤولية الوطنية مدعومة من كل جانب.

ومما يمكن التوصية به لتعزيز الأمن الفكري وتربية وتنمية معنى الوطنية عملياً الآتي:

أولاً: لما كانت الأسرة هي أهم مؤسسة اجتماعية يمكن من خلالها تربية معنى المواطنة، لكن الملاحظ جوانب من القصور أو التقصير في أداء هذه المهمة، فإن المسؤولية الاجتماعية تستدعي تبني تفعيل الأداء التربوي ومهاراته للأسرة السعودية. ذلك أن الآباء أو الأمهات قد لا يملكون أحياناً من المهارات ما يعينهم على أداء رسالتهم ، وبالتالي يمكن لوزارة الشؤون الاجتماعية مثلاً تبني وتفعيل فكرة (مراكز الإرشاد الأسري) في مدن ومحافظات المملكة، ولا تختص فقط بذوي الظروف الخاصة بل تعمل من خلالها على تنمية الحس التربوي لكل أسرة ومعالجة القصور في الأداء التربوي من خلال عقد دورات ، زيارات وحلول مشكلات وغيرها من الأدوات التي تنمي المسؤولية الأسرية وهذا بدوره سوف ينعكس إيجابياً على تعزيز الفكر وتربية المواطنة في صناع مستقبلنا.

ثانياً: إن أساس التحصين بل والعطاء الفكري ليس فقط فيما يتلقاه الإنسان من نصائح ومعلومات وتوجيهات بل الأهمية الكبرى تكمن في عادات التفكير لديه ومهاراته الذهنية، فالفرد تسيره عاداته الفكرية التي تربي عليها ومهاراته الذهنية التي اكتسبها وهذه تؤثر في الحب والكره والأخذ والرد والفوضى والانضباط والتحيز والتعصب، بل وفي نظراته للآخرين ومن هنا فترية التفكير السليم ومعرفة أدواته ونظرياته وآلياته وتطبيقاته هي من الأهمية بمكان لأجيال مستقبلنا وهي دعوة لوزارتي التربية والتعليم، والتعليم العالي أن:

أ- تتبنى مشروعاً كهذا ليكون مادة دراسية ذات أولوية فلها من الأهمية ما هو أكبر من عدد من الدروس التقليدية.

ب- ومقترح عملي آخر هو العمل على إيجاد محاضن التفكير ومراكزه أو ما تعرف بالانجليزية بالشنك تانك (Think Tank). ويمكن أن تتبنى أو تشارك في هذه الفكرة وزارتي التعليم والشؤون الاجتماعية ورعاية الشباب.

ثالثاً: الوقت الذي يقضيه الشاب/الشابة في مؤسسته التربوية التعليمية يُعدّ الأكثر أهمية حيث يتفرغ لما يقارب ست ساعات يومياً يتلقى من عدد من المعلمين/المعلمات كمية من المعلومات المتنوعة، ونحتاج لأن نعلم كم هي النسبة التي يتربى أو يربي من خلالها معنى الأمن الاجتماعي والفكري والمواطنة والأخلاق والانضباط الذاتي. هذا التساؤل المهم لا يمكن أن يجيب عليه إلا من يقوم بهذه المسؤولية ومن هنا نحتاج إلى تقييم الآتي :-

(1) المادة الدراسية ومدى طرحها للمفهوم القيمي وتركيزها على المسؤولية الأخلاقية والوطنية.

(2) المناشط اللامنهجية ومدى تفعيلها للأمن الفكري والحس الوطني والأخلاقي.

(3) الأداء الوظيفي للإدارة والمعلمين ومدى تجاوبه وتمثيله وأدائه للرسالة

التعليمية والتربوية في تنمية للفكر والمصلحة الوطنية.

ثالثاً: بين بيئة الأسرة وبيئة التربية والتعليم تأتي مسؤولية البيئة الاجتماعية التي تتسبب هزم مسؤولياتها وزارة

الشؤون الاجتماعية ورعاية الشباب حيث الحاجة إلى تكامل مسؤوليات التربية والرعاية الاجتماعية من

خلال إيجاد وتكثيف قنوات ومؤسسات أو مراكز للأحياء لتقوم بأدوار تتكامل مع سابقتها من خلال:-

§ شغل أوقات فراغ أبناء وبنات الحي.

§ تنمية التكافل الاجتماعي.

§ تنمية حس المشاركة الاجتماعية.

§ القيام على حاجات الحي المختلفة وتلبية خدماته.

وكل هذه الأدوار وممارساتها تنمي معنى الانتماء الاجتماعي للوطن. ذلك أن شعور

الجميع بأداء دور معين تجاه الحي، المجتمع، الوطن، يعزز الأمن والوطنية وتنميتها.

خامساً: ويبقى الإعلام الوسيلة الأكثر تأثيراً في عالم اليوم!، ومما نحتاجه من إعلامنا بوسائله المختلفة وقنواته

ألا يفتح مجالاً لتأجيج الشحناء بين مكونات المجتمع أو أن يكون مادة لنشر معائب المجتمع دون معالجة!!، ومما

نطلبه من وسائل إعلامنا الآتي:

١ - برامج جديدة وجذابة وعلى وجه الأخص للشباب تناقش معهم همومهم وتطلعاتهم، وتستضيف دورياً

شرائح مختلفة منهم من خلال جولات إعلامية لمختلف مناطق المملكة، كل ذلك من أجل تفعيل مشاركتهم

بحمل الهم الوطني وتعزيز انتمائهم وحسهم الأمني والاجتماعي.

٢ - تكثيف المهرجانات الوطنية التي تنبأها وزارة الثقافة والإعلام ، أو تتعاون

مع مؤسسات المجتمع المختلفة في نقلها حية للجمهور السعودي من خلال أجهزتها وإدارتها المختلفة.

٣ - المواطن السعودي في مختلف أرجاء الوطن يحتاج لأن يسمع صوته من خلال الإعلام وهنا نقترح أن يقوم

الإعلام المرئي بتهيئة مادة إعلامية تكون بمثابة (منبر وطني) دونما كلفة أو تعقيدات يترك للمواطن البسيط أن

يعبر من خلاله عن كل ما يريده

ومن ثم يستمع كل مسؤول معني إلى هموم المواطنين لتشكّل هذه الأداة الإعلامية قناة

تواصل وتوجيه مباشر بين الوطن والمواطنين.

٤ - تفعيل معنى الرقابة والمسؤولية على كل ما يخلّ بثقافة المجتمع وأمنه سواء في

الفكر أو السلوك خصوصاً تلك المادة التي يمكن أن يتداولها الناس مسموعة أو مقروءة

أو مرئية ، وتشكيل هيئة رقابة فاعلة من إعلاميين وشرعيين واجتماعيين لتقوم بهذه

المسؤولية.

سادساً: وعلى مستوى المؤسسة السياسية نحتاج إلى تأكيد وتفعيل العمل على مستويين الأول : في مفهوم التعزيز .
والثاني : في مفهوم الحماية.
ومما يمكن التوجيه به لتحقيق المعنيين الآتي:-
أ. تبني مفهوم التنمية الشاملة والمستدامة لكل أرجاء الوطن فلا يهمل مكان على حساب أو لحساب آخر.
ب. دعم الفئات الأكثر احتياجاً في المجتمع لأن الحاجة عادة ما تؤثر في السلوك وبالتالي فوجود مؤسسات تلي حاجة الناس في الإقراض أو التوظيف وسد العجز وغيرها هي عوامل من شأنها أن تعزز من جهة وتحمي معنى المواطنة وتحمي من جهة أخرى المواطن من الانحراف.
ج. التأكيد على تعليم القيم ودراساتها في كل مراحل التعليم خصوصاً قيم العمل، والمشاركة الاجتماعية ، وقيمة الأداء والإنجاز.
د. تشكيل هيئة وطنية عالية وفاعلة لحماية ((الهوية الوطنية)) من خلل الفكر وخلل السلوك وإذا كان لدينا من الهيئات ما تختص بالسياحة ، وبحقوق الإنسان ، وبحماية الحياة الفطرية ، فإن ((حماية الهوية الوطنية)) في تقديرنا يعد اليوم أكثر أهمية خصوصاً في عالم يعج بالمتغيرات المفيدة والمخيفة في آن واحد.
انتهى،،،

المراجع

١- إبراهيم بن مبارك الجوير، (١٤٢٥) دور الأسرة في تحقيق الأمن الاجتماعي. مقدمة لندوة الأمن والمجتمع : كلية الملك فهد الأمنية:الرياض.

- ٢- ابن الشيخ، محمد بن خلف (١٤٢٠) المواطنة الصالحة. الرياض.
- ٣- بن حميد، صالح بن عبدالله (١٤٢٣) "الإسلام وحوار الحضارات". مقال في مجلة الشورى.
- تصدر عن العلاقات العامة بمجلس الشورى السعودي: الرياض.
- ٤- البناء، جمال (١٩٨٧) الحساسية الدينية. الزهراء للإعلام العربي: القاهرة
- ٥- إيتروني، أمياني (٢٠٠٥) الخير العام: إشكالية الفرد والمجتمع في العصر الحديث. دار الساقى : بيروت لبنان.
- ٦- إيرلي، دون آي (٢٠٠٣) بناء مجتمع من المواطنين
"تحرير". ترجمة هشام عبد الله . الأهلية للنشر والتوزيع: الأردن
- ٧- البشري، طارق (١٩٩٦) الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر. دار الشروق: القاهرة.
- ٨- بكار، عبد الكريم، (٢٠٠٢) خطوة نحو التفكير القويم. دار الإعلام. الأردن.
- ٩- الحبيب، طارق بن علي (١٤٢٧) التربية الدينية في المجتمع السعودي . رؤية نفسية اجتماعية. مؤسسة الجريسي. الرياض.
- ١٠- الحسان، محمد إبراهيم (١٩٩٥) المواطنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية. دار الشبل للنشر والتوزيع : الرياض.
- ١١- الحقييل، سليمان عبدالرحمن (١٩٩٦) الوطنية ومتطلباتها في ضوء الإسلام مطابع التقنية للأوفست: الرياض.
- ١٢- حميد الله ، محمد (بلا تاريخ) مجموعة الوثائق السياسية. الرياض
- ١٣- الحضيف، محمد (١٤٢٩) بين الأمن الفكري والحجر الفكري. موقع الباحث على الشبكة.
- ١٤- الخليفة، عبد الله حسن (٢٠٠٨) الخصائص الأسرية للمطلوبين أمنياً وعلاقتها بالإرهاب والتطرف في المجتمع السعودي. في السجل العلمي الملتقى (الأسرة السعودية والتغيرات المعاصرة) الجمعية السعودية لعلم الاجتماع والخدمة الاجتماعية. الرياض.
- ١٥- الجحني، علي فايز (٢٠٠٧) دور التربية في وقاية المجتمع من الانحراف الفكري. جامعة نايف
- ١٦- الجعفري، حسن احمد، (١٤٢١) الانفتاح العقلي في التربية الإسلامية. دار الأندلس الخضراء. جدة.
- ١٧- الزنيدي، عبد الرحمن بن زيد، (١٤٢٢) ، حقيقة الفكر الإسلامي. دار المسلم. الرياض.

- ١٨ - الزبيدي، عبدالرحمن بن زيد (١٤٢٦) فلسفة المواطنة في المجتمع السعودي. موقع المنشاوي للدراسات والبحوث.
- ١٩ - الزهراني، هاشم بن محمد. (١٤٢٥). الأمن مسؤولية الجميع، رؤية مستقبلية. موقع المنشاوي للدراسات والبحوث.
- ٢٠ - سلطان ، جمال ، ١٤٢٠ ، تحديد الفكر الديني . دار الوطن . الرياض.
- ٢١ - السليمان، عبد السلام عبد الله. (٢٠٠٥) صلة الغلو في التكفير بالجريمة . رسالة ماجستير منشورة. الرياض.
- ٢٢ - السيف، محمد بن ابراهيم (١٤٢٤) المدخل إلى دراسة المجتمع السعودي. دار الخريجي: الرياض
- ٢٣ - الشدي، عادل بن علي (١٤٢٥) مسؤولية المجتمع عن حماية الأمن الفكري لأفراده. ندوة المجتمع والأمن بكلية الملك فهد الأمنية. ١٤٢٥
- ٢٤ - الصاوي، صلاح (بلا تاريخ) الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي. كتاب المنتدى الإسلامي.
- ٢٥ - صوفي عبد الرحمن حمد (٢٠٠٤) الثغرات التي يتسلل منها الغزو الفكري وسبل تلافيها. مكتبة العلوم . المدينة المنورة
- ٢٦ - الطلاع، رضوان بن ظاهر (١٤١٩) نحو أمن فكري إسلامي. الرياض
- ٢٧ - العامر، عثمان صالح (٢٠٠٦) دور المواطن في المحافظة على الأمن والتصدي للأفكار الضالة. في كتاب الرؤية الإدارية في الواجب الوطني: إمارة المنطقة الشرقية.
- ٢٨ - العبيدان، موسى مصطفى (٢٠٠٧) مباحث في الفكر الإسلامي. تبوك
- ٢٩ - عبد الكافي، عبدالفتاح اسماعيل (١٩٩٤) التعليم والهوية في العالم المعاصر . " مع التطبيق على مصر". مركز دراسات الإمارات: أبو ظبي
- ٣٠ - العلواني طه جابر (١٩٨٩) الأزمة الفكرية المعاصرة . المعهد العالمي للفكر الإسلامي. المعهد العالمي للفكر الإسلامي: فيرجينيا : أمريكا
- ٣١ - عمارة، محمد (١٩٩٨) الإسلام والأمن الاجتماعي. دار الشروق. القاهرة
- ٣٢ - عمارة، محمد (٢٠٠٤) مقالات الغلو الديني واللا ديني. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة
- ٣٣ - العودة، سلمان فهد، (٢٠٠٧) مقالات في المنهج . مكتبة الرشد. الرياض.
- ٣٤ - الغنوشي، راشد (1989) حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع المسلم . المعهد العالمي للفكر الإسلامي: فيرجينيا : أمريكا.

- ٣٥ - غيلان، محمد يحيى (١٤٢٩) دور الجمعيات الخيرية في تحقيق الأمن الاجتماعي. المدينة المنورة
- ٣٦ - الفرفور، محمد عبد اللطيف (٢٠٠٢) حقائق عن الفكر الإسلامي. دار المكتبي. سورية
- ٣٧ - الفيومي، محمد ابراهيم (٢٠٠١) في مناهج تجديد الفكر الاسلامي. دار الفكر العربي: القاهرة
- ٣٨ - قطب، محمد (١٩٨٣) مذاهب فكرية معاصرة. دار الشروق: القاهرة.
- ٣٩ - قهوي، حميد (٢٠٠٤) المواطن العربي والوعي القومي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.
- ٤٠ - المالكي، عبدالحفيظ عبدالله (١٤٢٨) نحو استراتيجية وطنية لتحقيق الأمن الفكري في مواجهة الارهاب. رسالة دكتوراه: كلية الملك فهد الأمنية.
- ٤١ - المرصفي، سعد (١٩٩٧) المسؤولية الوطنية في الإسلام. دار الذخائر: الدمام
- ٤٢ - الموسوعة السياسية : (1990) مادة مواطنة. المجلد السادس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ٤٣ - النبهان، محمد فاروق (١٩٨٨) نظام الحكم في الإسلام. مؤسسة الرسالة: بيروت
- ٤٤ - الهريفي عبد الرحمن حمد (١٤٢٥) جذور الغلو دار ابن الجوزي . الدمام
- ٤٥ - ياسين، السيد (٢٠٠٢) المواطنة في زمن العولمة. الدار المصرية للطباعة
- ٤٦ - Robert Putnam , Bowling Alone (2000) The collapse and Revival of American Community.
- سيمون آند شوستر: نيويورك
- ٤٧ - Francis Fukuyama (1999) The Great Disruption: Human Nature and The Reconstitution of Social Order.
- توتشستون: نيويورك

ملحق

مناظرة ابن عباس للخوارج

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال/ لما اعتزلت الحرورية وكانوا على حدّهم ، قلت لعلي : يأمر المؤمنين ، أبرد بالصلاة ، لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلهم قال: إني أتخوفهم عليك قلت كلا إن شاء الله ، فلبست أحسن ما قدرت عليه من هذه اليمانية ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة ، فدخلت على قوم لم

أر قوماً أشد اجتهاداً منهم ، أيديهم كأنها ثفنُ الإبل ، ووجوههم معلنة من آثار السجود فدخلت ، فقالوا : مرحباً بك يا ابن عباس ، لاتحدثوه ، وقال بعضهم : لنحدثه ، قال : قلت : أخبروني ماتنقمون على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه ، وأول من آمن به وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ؟ قالوا: ننقم عليه ثلاث قلت ماهن ؟ قالوا:

أولاهن : أنه حَكَمَ الرجال في دين الله وقد قال الله تعالى M ~ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ L الأنعام ٥٧ ، يوسف ٤٠ و٦٧ ، قلت : وماذا ؟ قالوا: قاتل ولم يسب ولم يغنم ، لئن كانوا كفاراً ، لقد حَلَّت أموالهم ، وإن كانوا مؤمنين ، لقد حرمت عليه دماؤهم ، قال : قلت : وماذا ؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين ، قال قلت : رأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكَّم ، وحدثكم من سنَّة نبيكم صلى الله عليه وسلم مالا تنكرون ، أترجعون ؟ قالوا: نعم ، قال : قلت : أما قولكم : إنه حَكَمَ الرجال في دين الله ، فإنه تعالى يقول {ياأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارةً طعام مسكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف } المائدة ٩٥ .

وقال في المرأة وزوجها : {وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً} النساء ٣٥ أنشدكم الله ، أفحكم الرجال في دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات البين أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم ؟ قالوا : اللهم في حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم .

قال : أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم قال : وأما قولكم : إنه قتل ولم يسب ولم يغنم ، أتسبون أمكم ؟ أم تستحلون منها ماتستحلون من غيرها ؟ فإن قلتم : إنا نستحل منها مانستحل من غيرها فقد كفرتم ، وإن زعمتم أنها ليست أمكم فقد كفرتم وخرجتم عن الإسلام ، إن الله تبارك وتعالى يقول M أَلَنِي ۖ ©

بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ L الأحزاب: ٦ .

وأنتم تترددون بين ضالالتين فاختراروا أيها شئتم ، أخرجت من هذه ؟ قالوا: اللهم نعم . وأما قولكم : محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا قريش يوم الحديبية ، على أن يكتب بينه وبينهم كتاباً : فكتب : هذا ما قضى عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال والله إني لرسول الله وإن كذبتهموني ، اكتب يا علي محمد بن عبد الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي ، أخرجت من هذه قالوا : نعم .

فرجع منهم عشرون ألفاً ، وبقي منهم | أربعة آلاف فقتلوا . (المصدر في السليمان: ٢٠٠٥)

الإخلال بالأمن خلل في الإيمان
مقال
(نشر قبل فترة في الجزيرة)
د. خالد الشريدة

"قراءة اجتماعية لجرائم العصر المحلية"

بين الأمن والإيمان تفاعل سنني كوني هو من أقدار الله الماضية في عباده سواءً على المستوى الشخصي أو الاجتماعي. ومن الأحداث والأشخاص والمناشط ماتكون أدوات أمن للمجتمع ترقى برقيهم وتتجاوب البيئة مع تطلعاتهم ذلك أن إيمانهم هو الذي يحذوهم لتفعيل معنى الأمن الاجتماعي. وحينما يلتبس الإيمان بشيء من الخلل الفكري أو العملي (و لم يلبسوا إيمانهم بظلم) فإن مظاهره تبدو على محيط ساحتنا الاجتماعية. وإذا ما تجسد الإيمان الحق في النفس فإن أنسجة المجتمع المختلفة تستجيب له فتأتي طائفة غير مكرهة مسوقة بتقدير الله الذي قدر في الكون مقاديرها لتستجيب لأمره حينما تتكامل العناصر التي أراد الله لها أن تنتج نباتاً طيباً أو نكداً (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً). إن النفس المؤمنة بالله يستحيل أن تكون أداة هدم وإفساد ذلك أن هذه سمة الذين غضب الله عليهم فجعلهم أدوات إفساد (ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين).

وفي الحديث أن "المؤمن لا يفتك" وليس ذلك من طبيعته ذلك أن الإيمان مرتبط بالأمان الداخلي "النفسي" والذي بدوره ينعكس على الخارجي "الاجتماعي" وبالتالي فمع انتشار ظاهرة الأمن يمكن القول بأن لدى الناس قدراً من الإيمان رفيع أثّر في فسيولوجية المجتمع فبعث الاطمئنان في أنسجته والعكس صحيح. ومن هنا يصح القول بأن من يهتك أعراض المسلمين ويروّعهم بأي وسيلة كانت إنما يعكس ذلك خللاً في مفهوم إيمانه الذي من نتائجه ظهور سلوكياته المعوجة. وبذلك يتأكد بأن من روعوا عبادة الله وسفكوا دمائهم في بلاد الحرمين بل في حرم الله الأمن يعانون خللاً في تصورهم لمعنى الإيمان فلربما يجرمون الناس بمعضية ويخرجون عباد الله عن دين الله بالظن ويحجّرون دين الله الذي قدر الله له أن يكون يسراً فشددوا فشدد الله عليهم

وجنوا على أنفسهم وعلى دينهم وعلى أمتهم وليس بعد سفك دمائهم بأيديهم من اعتذار. ولما كان رد حكم التكفير إلى الله ورسوله - كما هي فتوى كبار العلماء - "لم يجوز أن يكفر إلا من دل الكتاب والسنة على كفره دلالة واضحة، فلا يكفي في ذلك مجرد الشبهة والظن... وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات مع أن ما يترتب عليها أقل مما يترتب على التكفير، فالتكفير أولى أن يدرأ بالشبهات" .. بل قد ينطق المسلم بكلمة "كفر" لغلبة فرح أو غضب أو نحوهما فلا يكفر بها لعدم القصد كما في قصة الذي قال " اللهم أنت عبدي وأنا ربك " أخطأ من شدة الفرح.

ولما لهذا الخلل في المعتقد من مترتبات تستباح فيها الدماء والأعراض والأموال، وتخريب المنشآت، وهتك الحرمات الأمن والاستقرار، فإن هذا الخلل هو جماع الفساد الذي أجمع عامة المسلمين وخاصتهم على حرمة.

ومما يجدر تأمله بأن هناك من المسببات لهذه الظواهر السلبية ما يمكن تفسيره بناءً على سنة الله الجارية حيث تظهر في المجتمعات من السوءات بقدر تفلتها من حفظ أوامر الله وممارستها. والمعنى أن ما نشهده من ظواهر تقلق راحتنا هي ابتداءً من صنع أنفسنا {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} وعلى هذا فالأخذ على يد المتلاعبين بأحكام الله سواء بالخروج الفكري الاعتقادي أو العملي... حيث لا يراعون حرمات الله.. يُعدّ أحد أهم متطلبات تحقيق الأمن والاستقرار الاجتماعي.

وحسبما نفهم فإن تحقيق الأمن على المستوى الاجتماعي لا يكفيه صلاح نسبة من أفراد، إن لم تكن هذه سمته.. أي أن معاني الإصلاح في أفراد والمجتمع أعم!... فتعالج في ذلك قوى ومقومات الأمن ونقيضها (سنيًا) وبالتالي يكتب للناس ما يستحقون، تمامًا كما في قصة هلاك الصالحين إذا كثر الخبث... فلا اعتبار هنا لوجود الصلاح النسبي البسيط مع كثرة الفساد.

وذلك في - ظننا - يعني أن تحقيق الأمن من عدمه لا يعني أنه بيد الأعداء أو يمكن أن يخلّ به أعداؤنا أو فئة ضالة بيننا.. إنما ذلك كله بأيدينا.. فحن الذين نكتب - بتقدير من الله - لأنفسنا الأمن من عدمه وذلك يعود ابتداءً للجهد الذي نبذله لتحقيق ذلك من عدمه.

.. وإذا كان لنا أن نندرس شيئاً من المسببات الدنيوية الاجتماعية لمثل هذه الظواهر فيمكن عرض

الآتي:

أولاً: أن البيئة القاسية التي يترى عليها الإنسان بمختلف مظاهرها - في الغالب - تنتج ردود فعل قاسية، وأحياناً تستجيب استجابات غير متوقعة فتولد انفلاتاً في التصور والسلوك الذي لا يراعي ولا يرضى حلاً ولا حرمة.

ثانياً: في مقابل البيئة القاسية تنتج البيئة الساقطة أيضاً أفعالاً شبيهة بسابقتها ولكنها تختلف في النوع حيث تشتد الأولى في الهوى وتشتد الأخرى للشهوة.

ثالثاً: أن سلبية الأصوات المتزنة وعدم تفاعلها مع وتفعيلها في المجتمع تحمل شيئاً من وزر تنامي سلبيات المعتقدات الفكرية والممارسات البدعية والتجاوزات الشرعية.

رابعاً: أن تقديس ما ليس له قداسة وتضييق حقه السعة وتحجيم ماحقه التنوع وتوحيد ما يقبل التعدد... كل ذلك وسائل ممهدة لسلوكيات محتقة قابلة للاشتعال مع أي ملامسة. تماماً كالأجساد التي لم تر الشمس فاحترقت عند رؤيتها، أو تحمدت عندما افتقدتها!.

خامساً: إن اعتماد طرح الإثارة في القنوات المرئية أو الصحفية أو المنبرية عوضاً عن تنمية الوعي والتأسيس لقيم الأمن والتعامل مع الواقع بعقلانية يفرز أشكالاً من التصرفات العشوائية التي يصعب ضبطها بواقعية.

سادساً: ضعف أو عدم تهئية قنوات للتعبير السلمي عن الحقوق والواجبات ورد المظالم وحماية الحريات المشروعة كل ذلك يولد مناخاً عاصفاً قد يحمل بين طياته أهواءً مشحونة تنذر بمخاطر غير متوقعة.

سابعاً: إن لغة التعالي والاستكبار من أشخاص أو دول كقهر الشعوب أو احتلالها، أو استنزافها وتدمير مصالحها كل ذلك يولد من العناصر المضادة ما لا يمكن تصور أثره وأبعاده، والقتل الأعمى لا يولد استسلاماً... خصوصاً لدى العرب.. فكم قامت حروب لتثار لامرأة أو حتى لعشرة بين داحس الغبراء. ثامناً: إذا كان في الفيزياء أن (كل فعل له رد فعل مساوٍ له في القوة ومضاد له في الاتجاه) فإن الاجتماع الإنساني يشهد شبه ذلك! فالإرهاب لا يولد سلاماً.. بل يقتله... والعنف لا يولد أمناً بل يلغيه.. وتلك سنن حياتية أن العنيف مكروه... وأن من ينسى يُنسى، ومن يُحب يُحب، ومن يكره يكره، ومن يُعطي يعطي، ومن يُفسد يفسد، ومن يتجرأ على حرمان الله يقتص منه، ومن لا يوفقه الله لا يفلح.. وهكذا.

وحينما تختل موازين معادلة الحياة الإنسانية بحيث لا يقابل الشيء بما يستحقه سواءً في جانب الحب أو الكره أو الأخذ أو العطاء أو الاقتصاص، أو الشكر على العمل أو الإنكار على السفه والخطأ أو غيرها من معطيات الحياة فإن المعيشة تُنزع منها معاني السعادة والبركة والاستمتاع.

أخيراً... في النفس أن تقول "شتان بين الجهاد والإلحاد" في الأرض.. فالأول مرتبط بالإصلاح والآخر بالإفساد! وإسقاط ما حصل من ترويع الآمنين في بلاد الحرمين على المعنى الأول هو من الميل للمعنى الثاني الذي لن يصلح به العباد.. ذلك أن معتقدات الفساد ووسائل الإفساد كتب الله لها - سنيناً - أن لا تكون صالحة أو مصلحة (إن الله لا يصلح عمل المفسدين).. ودائماً - سبحانه الله - ما تكون نفوس المفسدين في الأرض - أياً كانوا - عاقبتها خسرًا.. ليس في الدنيا فقط بل كذلك في الآخرة.

... إن الجرم في حق البشرية كبير وبحق دين الله خطير فلا مجال للعواطف المغلوطة، فساحات الجهاد وفضائله لا تخفى على العقلاء، ونفوس المجاهدين الأتقياء لا تخشى دهاليز السجون... ولم الحرب من المسائلة فقد سجن أكثر علماء الإسلام صينياً، ولم يقل (يجب ألا أسجن) وسجن مانديلا - من غير ديانة - قرابة الثلاثين سنة "ظلماً" وخرج متوجاً مصلحاً... فلم نستكثر على النفس أن تُجرَح في سبيل الله!!... إنه المفهوم المعوج لما في "سبيل الله"!!.

إن حرمة دم المسلم أشد عند الله من بيته الحرام... ولكنها مع خلل الإيمان لم تعن شيئاً لمن أزهقوها تماماً كرؤية متطري اليهودية والنصرانية.

والمؤمن الحق ليس فتاكاً ولا لغاطاً ولا متسرعاً في حكمه وأخذه وردده..!

... وما سَطُر هنا اجتهداد في النظرة وسعيًا لمصلحة الأمة التي يجب أن تكون يدًا واحدة في السلم فضلاً عن أيام الفتن والإرجاف والمخاطر التي تحاصرها من كل جانب... وبالله التوفيق وهو يهدي السبيل..،

د. خالد عبد العزيز الشريدة

عميد شؤون الطلاب

قسم الاجتماع - جامعة القصيم